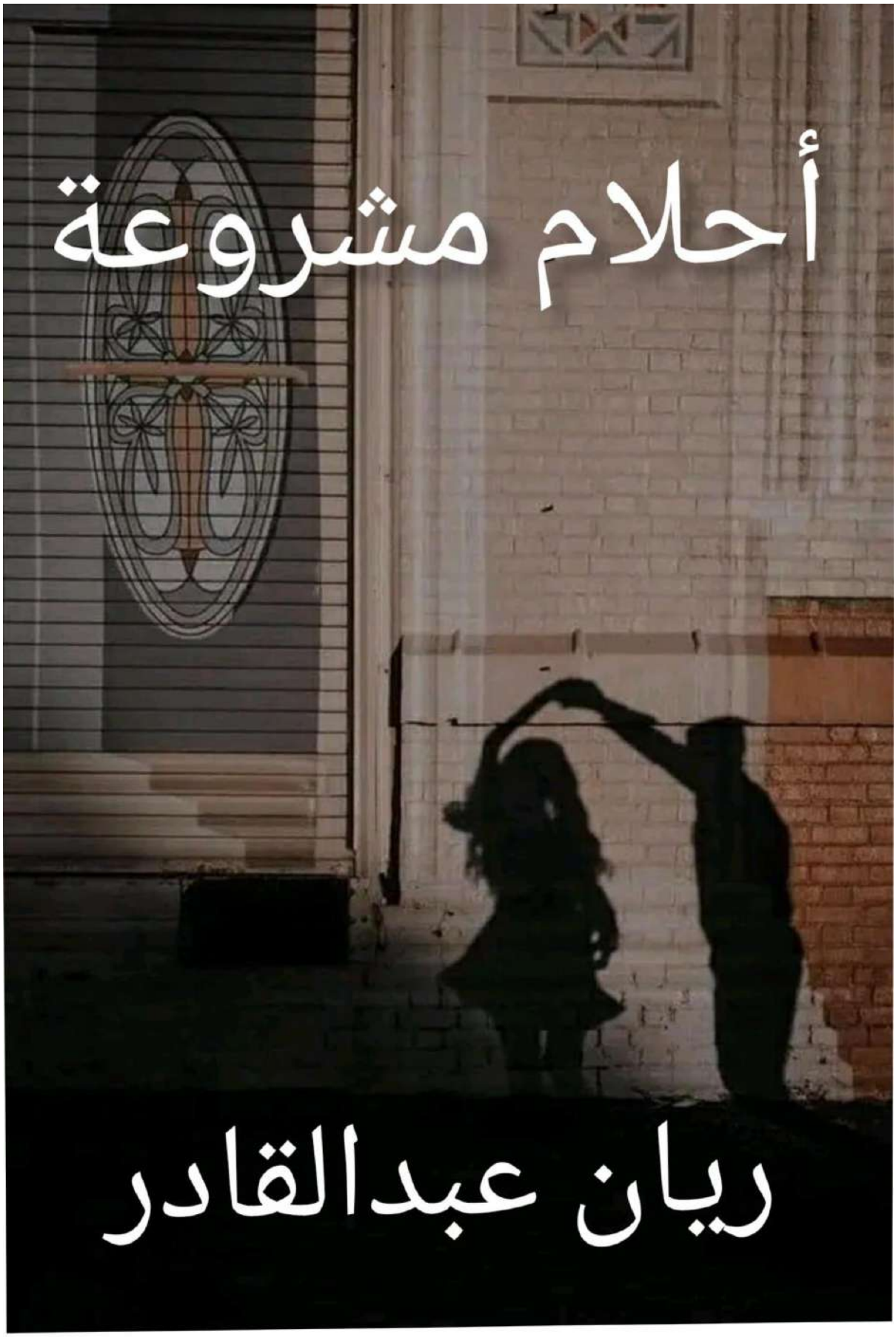
أحلام مشروعة
ريان عبدالقادر

إهداء

إلى أمي وأبي..
إلى أنثى من عالم آخر..

إلى ذلك الغريب القريب،
ما زال طيفك يحوم حولي...

ريان

بدءً

وطني أرض وأد الأحلام...

من الغريب أن تكون هذه أول جملة تستهويني وتدفع بي نحو المجهول، لطالما كانت الكتابة بالنسبة إلي طريق مجهول محفوف بالعثرات والسقطات؛ فلا أنت تدري إلى أين تذهب أو ماذا ستعاصر في هذا الطريق.

تمضي مع أول جرت قلم بلا وجهة محددة تستدرجك فكرة وراء أخرى. وتواصل الجري وإصطياد الأفكار مثل فهد لا يملك سلاح غير سرعته وبها ينقض على فريسته.

كثيراً ما خطر في بالي هل الكتابة هي الحل الوحيد لتخليد ذكرى من رحلو عنا؟

نضعهم بين صفحات كتاب في ورق أبيض نكفنهم نبكيهم وننعيهم أو نقتص منهم؟

لكن مع مرور الكتب وكثرة القراءات وجدت أن الكتابة ما هي إلا محاولة عبثية لعيش حياة ليست في متناول يدنا.

نسطر كل شيء فيها بدقة تتناسب مع إحتياجاتنا، بدءً من إختيار من نصادف وحتى الأحداث والحوارات بيننا إلى خط النهاية حيث تكون سعيدة كما حلمنا.

وأنا هنا بصدد فعل ذلك تخليت عن واقعي قليلاً حتى أغوص داخل أعماقي بحثاً عن مغامرة جديدة، أو ربما حب جديد وما أسهل تعثرنا بالحب عندما نغفل عن وجوده.

على لسان رفيق دربنا في الكتاب:

من المُسلمات عندما تعيش في هذا المجتمع؛ يجب عليك بتر أحلامك بيديك قبل أن يسبقك أحد إلى ذلك. فنحن في وطن لا يسمح لنا حتى بالحُلم فما بالك بتحقيقه.

لا أدري إن كانت كلمة حُلم موجودة في قاموسنا من الأساس أو دُرست إلينا في مرحلة ما خلال المسيرة الدراسية الحافلة بالعقبات.

لست ألقي باللوم على المجتمع فقط وإنما جُل غضبي من نفسي وما آلت إليه حياتي.

الإغتراب أو الغُربة الباب الوحيد الذي فُتح للشباب على مصراعيه لمحاولة تحقيق أحلامهم. كثيرا منا لم يرى غير الهرب من أرض الوطن والبحث عن مكان آخر حتى يصل إلى ما يصبو إليه.

لا تشكل طرق الهرب فرقاً المهم وجودك بالخارج، إذا كان عبر أوراق رسمية ومن خلال طرق رسمية أو بورق غير رسمي وعن طريق البحر تهريباً.

لا يهم ما تقاسيه أو تعانيه خلال رحلتك العصيبة بل مهمة هي لحظة الوصول.

تلك اللحظة حينما تجد نفسك تسبح ملئ أحلامك..
طموحاتك.. رغباتك.. وكل ما تحمل من أمل، متحدياً تلاطم الأمواج على وجهك وبروده الجو المحيطة بك، رغم أنف كل ما يدفعك للغرق تناضل، ليس لأجلك فقط وإنما لأجل كل ما تركته وراءك، حينها تدرك أن العناء مُستحق وأنك مقبلاً لا محالة وسوف تنال ما تريد.

الفصل الأول

"عمران"

في الثامن من شهر أغسطس بدأت رحلة البحث عن أحلامي، مخلفاً ورائي الأهل والوطن والقبيلة، أملاً في دروب جديدة تحمل بداخلها كل الخير.

من العاصمة الخرطوم وفي تمام الخامسة صباحاً تحرك الباص الذي يُقلني إلى مدينة بورتسودان، تلك الساحرة عروس البحر وفتاته المدللة، العصية والفريدة والمتفردة في كل شيء، بدءً من ماءها المالح وحتى شوارعها مليحة الجمال.

وبعد رحلة دامت لأكثر من ثلاثة عشرة ساعة وصلت أخيرا إلى مرساي، عبر طريق جبلي محفور يكاد يهوي بكل ما يعبر به بغير دعوات ورضا والدين عند تلك العقبة، ملتقى حتف الكثير من سيئي الحظ.

همت الشمس بالمغيب وأنا على مشارف الوصول إلى منزل الحاج عبدالله صديق والدي من أيام الصِبا.

إستقبلني بحفاوة وكأني أحد فلذات أكباده، رأيت تلك البشاشة والإبتسامة المشرقة على وجهه وهو يحتضنني مرحباً بوجودي، وكما هي عادة السودانيين في كرم الضِيافة جاد بكل ما في منزله من طيبات.

جلسنا تحت ضوء القمر نتسامر عن الزمن الجميل "زمن النفوس كانت طيبة" كما يقول كل أبناء ذلك الجيل، كنت أدري مجرى ذلك الحديث وما سيؤول إليه في النهاية، ناشدني بإسم الوطن وكل ما فيه يستحثني على البقاء والمثابرة، فلا راحة خارج موطنك مهما بلغ بك الرفاه، ما نفع المال وما من أخ تنفقه عليه، أو أب تعيله ماذا عن الأم والأخت، أو لماذا نحتاج المال ؟ أليس من أجل الحصول على الرغبات الحياتية العادية؟ إذا لماذا تبتعد أجلس هنا معانا وأعمل فالعمل كثير وحقق ما تريد.

قضينا حوالي ثلثي الليل كل منا يحاول إقناع الآخر برأيه، لم يتعب ولم أتعب كانت لي أسبابي للرحيل وأسبابه لدعوتي

للبقاء، وبعد أن يأس مني دعى لي بالكثير من التوفيق "وربنا يعدل طريقك".

في مساء اليوم التالي تحركت الباخرة من ميناء بورتسودان إلى ميناء مدينة جدة، كُنت على السطح أطالع النجوم وإتساع الليل وهو يلتهم كل شيء بظلامه، إفترشتُ الأرض وإلتحفتُ السماء، كنت للبحر مجرد ذرة ولا يدري حتى بوجودي أو عدمه، أما السماء فكانت لا تراني ولا تأبه لأمري.

أهكذا أنا حقاً سراب وجد وسط هذا الكون الفيسح؟

أم أنه يخيل لي ذلك؟

أغمضت عيناي ورحت أفكر في ما ينتظرني، بلد غريب أناس غرباء وكل شيء غريب حتى أنا غريب عن نفسي.

ما الذي قد يحدث وإلى أي شيء سوف أصل؟

بعد يوم وليلة وطئت قدامي الأرض المقدسة بلاد الحرمين الشريفين، حيث روضة الرسول صلى الله عليه وسلم مقام إبراهيم عليه السلام الصفا والمروة وجبل عرفات وأحد، فيض من المشاعر إعترتني وأنا أقف ههنا وأخيرا وصلت لوجهتي، وتوقفت بوصلتي عن الدوران باحثة عن شمال يخص أحلامي.

كان يوجد من ينتظرني حاملاً لوحة عليها إسمي تعرفت عليه وكان أحد أبناء الوطن سابقي العهد بالرحيل، رحب بي وإنطلقنا بسيارته محدثاً إياي عن البلد وأهله وطباعهم وأخلاقهم، وصلنا إلى بيته حيث أقضي الليلة هنا وفي الصباح إن كنت محظوظاً كفاية أكون على رأس عملي.

كان البيت يكتظ بالشباب، كلاً منهم أتى بحثاً عن حياة كريمة له ولعائلته، إجتمعنا وكل منا يحكي همومه للآخر وعن الأسباب التي دفعتنا للهروب من أرض وأد الأحلام،

قال أول:

لم أغادر برضاي الوطن لفظني رغماً عني، تخلى عني مثلما تخلى عنا جميعاً.

غريباً أنا، في هذا الأرض تائهاً هائماً لاذً بالفرار من حيث كنت إلى حيث أنا، لا الدار داري ولا الأهل أهلي ولا المكان مكاني، هرباً من أرض لفظتني كجنين غير مرغوب به آتى مصادفة خلال ليلة متعة عابرة.

بحثاً عن أمل أو ربما ألم جديد، أو قد يكون رحماً آخر يحتويني وما بي من أحلام.

ثم اردف ثاني:

لم تكن مشكلتي مع الوطن في الوظيفة أو المنزل فقط، كانت أعمق من ذلك بكثير.

كيف يستأمن شخص وطن غدر بقلبه وسلب حبيبته من بين يديه؟

كانت هناك بقربي وعلى بُعد خطوات مني، إنقض عليها وعلى مرأى مني، هكذا خلال لحظات كانت لغيري من دون إمهالي فرصة المدافعة عنها..عني أو عن قصة حبنا.

لم يكن لدي لا بيت ولا مال للزواج بها، وحيث يقدر المال أكثر من الحب والأخلاق، زُوجت لمن هو أكثر مالاً وأقل أخلاقاً.

وطن إستكثر علي أن أحظى بحبيبة كانت كل ما أملك وما أحلم.

أما الثالث فكانت مأساته من نوع أخر:

مرت لحظات عمري الطويلة ما بين المستشفيات وعيادات الأطباء المختلفة.

أصاب والدتي مرض عُضال عجزت كل الفحوصات في تبين ماهيته. وكلاً يؤوله حسبما تهيئ له نفسه بل وتسول كذلك. ما بين دواء وآخر لم يقوى جسد أمي على التحمل

وتعرضت لإنهيار نامت بسببه لسبعة أيام متواصلة في ثبات عميق كما الدببة في ليالي الشتاء الطويلة.

قال أطباء النفس أنها على دِراية بكل ما يجري معاها ولكنها فضلت الفرار على المواجهة. كذب ما يقولون فهم لا يعرفون أمي أكثر مني. هي أقوى محاربة عرفتها لا تحارب بالسيف ولا الأسلحة ولكنها وقفت أمام كل المصائب التي حلت بنا بكل شجاعة. واجهت كل الظروف في سبيل أن نهنئ بحياة طيبة تولت هي محاربة منغصاتها. عملت وكدت حتى ترانا "احسن ناس" كما تقول دائما. ولكن في ذلك الوقت خارت قواها من فرط ما حل بها وغطت في نوم عميق لن تصحو منه أبداً.

كانت ليلة أكثرنا فيها الحديث وقل النوم فلم يحظى جسدي براحة تذكر. وفي الصباح عقب شروق الشمس بقليل إنطلقت مع حسام حيث عملي. كان يحدثني عن الكفيل وتلك القواعد التي علي الإلتزام بها حتى لا أجد نفسي مرمياً خارج الحدود مع إمكانية عدم سماحهم لي بالعودة مرة أُخرى.

توقفت السيارة أمام منزل كبير بمنطقة توحي بترف ساكنيها، ترجل حسام ولحقته كنت أظن أننا ذاهبان إلى الشركة وليس

بيت الكفيل، أم يكون يعمل من منزله وهذا إحتمال وارد، رن على الجرس وبعد بضع دقائق كنا في صالون الإستقبال، جلسنا على الأرض وجاء الكفيل على ما أظن رجل في نهاية الخمسينات من العمر، على رأسه الشعر الأبيض وتبدو على ملاحه الطيبة، حيانا وجلس بجوارنا وأكرم ضيافتنا، وبعد وهلة من الوقت حدثه حسام في شأن عملي، كان الحديث يدورعني وكأنني لست بموجود، هذا يقرر وذاك ينفي أو يحكم ولا أحد يسأل عن رأي، وقد حُكم علي بالعمل سائق لدى عائلة الكفيل وكنت قد جئت بعقد عمل ينص على أني سوف أعمل محاسب في شركة مرموقة، غلِي الدم بعروقي ولم أقوى على السكوت، ضربت الطاولة أمامي بيدي فتهشمت قطع زجاجها إلى مليون قطعة، خرجت مغادراً المنزل إستوقفني ذلك الصوت الشجي، صوت سوداني طحنه الدهر وذاق مرارة الغُربة بحق، كان قد أمسك بيدي يدعوني للدخول مرة أخرى، جلس بي تحت شجرة ظلها وراف، مدني بكوب من الماء حتى أهدأ قليلاً وأكمل يقول سائلاً عن الأهل والبلد والأحباب "الكسرة والعصيدة يوم الجمعة".

كاد الشوق يشق قلبه وهو ينطق بكل تلك الكلمات، وماله لا يشتاق وقد غادر منذ عشرين عام ولم يرجع فيها ولا لمرة واحدة، لا أدري كيف إستطاع الصمود كل هذا الوقت من غير ذلك الهواء وتلك الوجوه؟

كيف لشخص أن يقدر على الحياة بعيداً عن ذلك الماء وتلك الأصوات، بعيداً عن "ريحة البن وقت القلوة ولمة الحبان".

تحدثنا مطولاً عن أسبابي للرحيل وأسبابه لدعوتي للبقاء وتذكرت حينها العم عبدالله وما قاله لي هنا حيث إنقلبت الأدوار، وصار هو من يحفزني على البقاء وأنا من أعدد له أسبابي للرحيل.

لكن لم يكن بمقدوري الرجوع وكيف أعود وكل الآمال متعلقة بما سأعود به. أعطتني أمي كل ذهبها وباع أخي سيارته وتبرعت أختي الصغيرة بمصروفها لي حتى أتمكن من السفر. كيف أعود صفر اليدين والجميع ينظر إلي على أني مارد المصباح الذي سيحقق الأمنيات.

كانت تلك أولى ضربات سيف الغُربة الغادرة التي تعرضت لها ولم تكن الأخيرة، خُدعت شر خِدعة من محاسب في شركة مرموقة إلى سائق لعائلة مرموقة.

الفصل الثاني

"نورة"

ما هي العادات والتقاليد؟

ومن جعلها الحاكم القاضي المقرر بكل تفاصيل حياتنا؟

ولم علي الخضوع لها وكأن الخارج من طوعها ليس إنسان أو كائن يستحق الرحمة أو حتى الشفقة؟

العادة في التعريف الخاص بي:

هي كل ما يفرضه عليك مجتمعك أو محيطك أو أسرتك حتى تكون ضمن القوانين الموضوعة منذ دهور عفى عنها الزمن، لا فائدة تذكر منها غير أنها تضمن وجودك ضمن تلك القعوقة وعدم السماح لك بمغادرتها مهما كانت أسبابك.

المجتمع هو المجتمع في كل مكان وزمان، قد يختلف قليلاً في بعض الملامح ولكن يظله هو، ظالم قاهر يدعي المثالية مرتبط بالعادات للمحافظة على أسس وجوده.

ومن هذا المنحنى كرهت كل عادة كانت كالأغلال تحيط بي من كل حدب وصوب، كل عادة قيدتني وأبعدتني عما أحب حتى أكون وسط الجموع.

ولم علي أن أكون وسط جمع لا أحبه من الأساس، كرهت مجتمعي عائلتي وكل تلك القيود التي تمنعني من الحرية.

حرية..

آه لتلك الكلمة التي لا وجود لها عندنا وبمجرد النطق بها فأنت كافر لا محالة، كيف لك أن تبحث عن الحرية إنها بداية الطريق للإنفتاح والإنحلال الأخلاقي، إنها الشُعلة التي تستعر ورائها مكامن الفسق والعهر، إنها باب من أبواب الشيطان لغواية الإنسان وإدخاله النار تحقيقاً لوعده لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

لا أدري من أين يأتون بكل تلك التأويلات لكلمة من أربعة أحرف، كيف لأربعة أحرف أن تحمل بداخلها كل هذا الفسوق والفجور، أربعة أحرف فقط قد تجعلك ملاكاً أو شيطان على المجتمع رجمه.

تعبت من زجرهم وتأنيبهم وحبسهم لي في الإنفرادي كي أتأدب كما يقولون، تعبت من كوني منبوذة من عائلتي أصدقائي وزملائي في المدرسة فقط لأني لا أشبههم ولا

أحب التشبه بهم، وهل علي أن أكون مثلهم حتى أحظى بالحب؟

من وضع ذلك الشرط؟

وكيف للحب أن يكون مشروط؟

حب

لا أظن أنهم يعلمون كُنه هذا الشعور، هنا الكره مبرر وكلاً يأيدك لأن تكره ويسهل في وجهك الطريق بل ويمدك بالأسباب.

لكن للحب شأن آخر..

الحب منطقة محظورة مفخخة بالألغام، حتى يتحقق الحب عليك المضي في الكثير من الإختبارات وتجاوز المحنات، عليك أن تثبت لنفسك أولاً أنك قادرة على الحب وتبرهن ذلك عبر الغرور..التكبر..إستصغار خلق الله..الأنانية المفرطة.. هكذا تصبح إنسان رائع ويحب نفسه كما يجب.

حتى أنا لا أدري ما هو الحب مصطلح غريب مشوه لا يعبر عن شيء بالنسبة لي.

كلاً يضعه في القالب الذي يعجبه يفسره البعض على أنه شعور جميل يبعث بالدفء، وآخرين على أنه أشبه بالسقوط من هاوية وفي لحظة الإرتطام تنبت لك أجنحة وتحلق في السماء عالياً.

ومرة عندما سُئلت ما هو الحب في نظري صمت، وعلى غير العادة لم تنطلق الكلمات من فمي كما السيلان، حدقت بها كانت معلمة الصف الخاصة بالصحة النفسية لكني لم أجد ما أقول وكيف يصف الإنسان شعور لم يعرفه ولا عن طريق الصدفة.

لكن أظن أن الحب لا يمكن وصفه بكلمة أو تصرف معين، فله أشكال عدة وصور كثيرة مع مختلف من ينظر إليه.

هكذا رُحت أبحث عن الحب في الكتب ووسط الروايات، قرأت الكثير وفي كل مرة يتغير تعريفي له، ولكن أشد ما جذبني تعريف ذلك الفيلسوف الذي لا أعرف عنه غير أسمه وأنه كان غارق في الحب حتى أذنيه.

قال فريدريك نيتشه (إنسان مفرط في إنسانيته):

"وإذا أَحبك مليون فأنا منهم، وإذا أحبك واحد فهذا أنا، وإذا لم يحبك أحد فأعرفي حينها أني قد رحلت إلى السماء"

مرتبط عنده الحب بالأبدية طالما هو على قيد الحياة سيظل يحبها وفقط سينقطع عن حبها عندما يموت.

حين قرأت هذه الجملة عدتها مرارا وتكرارا كانت عميقة كفاية حتى أغرق فيها.

هل لي بحب بهذا العمق؟

أم أنها خيالات مراهقة لا غير..أظنها كذلك.

كنت أفكر والتفكير هنا بحد ذاته جريمة يعاقب عليها القانون، خروجك عن النمطية ومحاولة التغيير يعد جريمة، لذا كنت أحتفظ بأفكاري لنفسي ولا أُحدث عنها أي أحد مهما كان.

لنعود للتفكير كيف أهرب من البيت ؟

وإلى أين أذهب؟

وكيف أعيش وحدي؟

وحدي

جميل وقع هذه الكلمة على مسامعي، أيضاً أربعة حروف تحمل بداخلها كل الراحة والإسترخاء.

وحدي وسط ذلك البيت..

وحدي أنهض من فراشي..

وحدي أُعد فُطوري..

وحدي أجلس لساعات أتباع مسلسلي المفضل..

وحدي أقضي ليالي الشتاء الباردة بين يدي كتاب وبقربي كوباً من الشاي..

وحدي أفعل كل ما أريد من غير زجر أو تأنيب.. ليتني كنت وحدي.

ما هو الغباء؟

وكيف يصنف إنسان على أنه غبي؟

وهل للغباء درجات؟

الغباء: هو التصرف بطريقة غبية في محاولة حل مشكلة ما، وكلما زادت عدد المرات التي تحاول فيها حل المشكلة بنفس الطريقة تزداد غباءً.

في حيز وجودي يتصنف الغباء على أنه أنا، غبية وقد فشلت في تجاوز الصف الثالث عدة مرات، غبية لم أستطع تجاوز إمتحاناتي وأنال تقدير ممتاز كما هو مفروض علي، غبية لم أصل لمرحلة الجامعة وبنت عمي في المستوى الثاني

وشارفت على التخرج، غبية لا تملك إي هواية إلا الكلام الكثير و "المجادلة في الطالعة والنازلة "

غبية تخاف الرعد والبرق والمشي تحت المطر، كل تصرفاتي تصنف بالغباء حتى إبتسامتي غبية مثل وجهي.

أذكر في مرة من السنون الماضية صفعتني أمي لأني قلت لا..

لا كحق لي في الرفض عن كل ما لا يعنيني

لا للخروج..

لا للإحتفالات..

لا لصديقات أمي المنافقات..

لا لكل شيء لا يعنيني..

كانت لا واحدة ومنذ ذلك الوقت لم أستطع النطق بها مجدداً.

لا يحق لك قول لا فأنت في معسكر تدربي ويجب عليك السمع والطاعة، تنفذ الأوامر من غير تفكير فقط علم وينفذ يا فندم.

حتى تنال الأُحظيات والحب من الجميع أو شبيهه على ما أظن عليك أن تكون موافقاً في كل شيء، لا تجادل أو تناقش فقط كن مؤيداً،

نعم هذا الفستان جميل..

تصرفك كان صائباً هي المخطئة بكل تأكيد..

نعم كل ما تقولينه صحيح..

هذا هو النهج الذي إتخذته أُختي الكبرى حتى تكون ابنه أمي المفضلة والمدللة.

وبما أني غير الموافقة والمجادلة في كل شيء فأنا من كنت المهمشة.

لم يقتصر الأمر على المعاملة فقط، فقد كانت أختي تحظى بكل شيء تقريباً،

الخروج مع أمي لرؤية صديقاتها..

الهدايا التي لا تحبها أمي..

وكل ما تفيض به أمي كان من نصيبها، حتى حبها صبت جُله عليها ولم تترك لي سوا القليل.

القليل الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع،

قليل من الإهتمام..

قليل من الحب..

قليل من الرعاية..

قليل من كل شيء كان النصيب الأكبر منه لأختي وما تبقى فهو لي.

قيل أن البِكر يحظى بحُب أمه وكانت تلك المقولة صحيحة مئة بالمئة، فقد كانت أختي تحتل قلب أمي وأخي يتربع على قلبي أبي ولم يبقى لي من قلب حتى أحتلهُ بحبي.

هكذا خرجت من المولد بلا حمص وكنت صدقة البيت، حسناً علي إدعاء اللامبالاة كما أفعل دائماً، وجودي في قوقعتي أفضل من أجل راحة وسعادة الجميل.

الممنوع مرغوب..

هكذا سمعت من معلمة الصف لم أعي معنى هذه الكلمات حتى ذلك اليوم، حينها شهدت أبي وهو يتهدد لأخي بالضرب إذا رأه يحمل سيجارة واحدة بين يديه، وقد يطرده من البيت من غير عودة.

كانت تلك أولى مرة يتعرض فيها أخي للتوبيخ، آخخ يا مسكين تعال إلى أختك فهي خبرة في هذا الموضوع.

ومن حزنه على كلام أبي الثقيل الذي نزل على قلبه أقفل على نفسه في غرفته، ولم يخرج منها حتى اليوم التالي عندما ذهب أبي لإسترضائه، وذلك المسكين لم يكررها إلى أن إنتقل إلى جوار ربه رحمه الله بسبب حادث سير تعرض له.

متأكدة لو كنت مكانه لما حرك أحدهم ساكناً جراء حزني، دائما ما يتركوني حتى أهدأ وأعود بمفردي، فلا يكلف أحدهم نفسه عناء إسترضائي.

لكن كان فيّ شعور ما يدفعني لتجربة ذلك الشيء..

ما هي السيجارة ولم جعلت أبي يُصاب بكل ذلك الغضب حتى فرط بفلذة كبده وعرضه للتوبيخ بكل تلك القسوة والكلام الجارح كما وصفه أخي حينها.

تسللت خِفية بعد أن ذهبا لأداء فرض العِشاء، دلفت غرفته على مهل وفتشت داخل الأدراج حتى وجدت غنيمتي، تلك الشيطانة الصغيرة متمثلة في هيئة عبلة مربعة، دسستها داخل ثياب وأنطلقت بها إلى سطح البيت، خبئتها في مكان لا يقدر أحد على كشفه حتى وقت آخر.

في منتصف الليل وحينما نام الجميع حتى أختي شريكتي في الغرفة انسللت بمهل من السرير، أدوس على أطراف أصابعي حتى وصلت للسطح وجلست وراء الخرداوات في مكان لا يراني فيه أحد، حاملة علبة الكبريت في يدي أخذت واحدة وأشعلتها، لم أعلم كيفية عملها أو إستنشاقها وعند النفس الأول كدت أموت خنقاً، إندفاع الدخان داخل رئتي أسكرهما فلم يعرفا هذا الشعور من قبل، رحت أكح وأكح حتى ترنح ذهني وتشنج معصمي، عاودت الكرة وفي هذه المرة تحسن أدائي ونفثت الدخان خارجاً، لأول مرة أشعر أنها أنا غير أنا التي أعرفها، كانت عادتي الوحيدة والسيئة التي حافظت عليها سراً عن الجميع.

تتعاقب الأيام والليالي وكلها دوالي ولا شيء جديد، غير مجئ ذلك الغريب إلى بيتنا، شاب أسمر اللون وكأنه خرج من محمصة ما، أشعث الشعر وقصير يلتف وكأن لولب صغير، ذا ملامح غريبة ولكنها جميلة بشكل ما.. وكأنه أحد الأفارقة الإنجليز في أمريكا اللاتينية..أظنه واحد من أشباه ذلك الملاكم.. دوني كان اسمه في الفلم لابد وأنه من أولئك الأربعين.

ما يميزه صوته الرنان ذو البحة الرجولية وكان فارع الطول بالنسبة لي فأنا أُعد قصيرة نوعا ما والكثير ينادوني بعلبة

التونة نكاية بي، جلس يتحدث مع والدي وكنت أسترق السمع والنظر إليهم عبر الشباك الخلفي الخاص بالمجلس.

كنت أعلم أنه عامل جديد للمنزل فالعم خالد سائقنا سوف يغادر بعد بعض شهور، لكن هل هو السائق الجديد؟

جرى كل شيء بسرعة الصوت ضرب يده بزجاج الطاولة فماتت المسكينة بعد سبعة أعوام عاشتها معانا في خدمة ضيوف والدي، كان صوته عالي وكأن بداخله أسد يزمجر يصيح ويعلو صوته من جديد، للحظة واحدة التقت أعيننا وسرت في جسدي قشعريرة لم أعهدها من قبل، تكهرب كل ما في ولم أقوى على الحراك، ثار كالبراكن وحينها أدركت أنه لا محالة لن يعمل لدينا مهما كان السبب، حتى العم خالد عجز عن جعله بتوانى عن قراره بالرحيل، لسبب كنت أجهله ولا أدري ماهيته بعد دعوت بعدم رحيله، شيء ما فيه لا يشبه غيره وكأنه فارس من عصر ما أتى لينقذني من هذا الحبس، يجعل إيامي أجمل بوجوده ويضيف عليها الألوان بعد أن أضحت رمادية.

أتراه فارسي المنتظر؟!

الفصل الثالث

"عمران"

خِداع

لا أدري ما أسبابه أو المكامن خلفه ولكنها مهما كانت لا تُبرر وضاعة الفِعلة، كيف لشخص اللعب بأحلام..

مشاعر..

آمال شخص آخر لسبب أي كان.

جلس إلي حسام بكل وقاحة يحاول تبرر فعلته لي، وأنه لو كنت أعرف منذ البداية ما كنت سأوافق، طبعاً لن أوافق فأنا لم أقضي سنوات شبابي في الدراسة حتى أعمل سائق خلف مقود قيادة، لم أسهر كل تلك اليالي وأحفظ تلك المعلومات لأستفيد منها في الطريق والعبور بين السيارات، لا أحتقر العمل فكل ما يدر بجنيه واحد حلال فهو عمل شريف، لكن أحتقر الطريقة التي أُرغمت بها على العمل فيه.

العمل الذي من أجله ضحت عائلتي بكل ما تملك، لكني لم أتقبل الهدية بدون الرد عليها ونال مني حسام ما تفضلت به يداي على وجهه الملائكي الخبيث.

لم يُترك لي حل سوا الخضوع للأمر الواقع حتى تفرج كما قال العم خالد، حينها أدخلني إلى الغرفة حيث سأقيم بعد رحيله وعودته إلى الوطن، عرفني على كل ما أحتاج إلى معرفته، قضيت ليلتي الأولى وأنا أتقلب على الفراش، كنت أعاني من الأرق فنهضت أتمشى في الحديقة، كان الجو يشي بالبرودة وهواء عليل يداعب وجهي، السماء صافية وتملئها النجمات على كرسي جلستُ أطالعها.

هل السماء تتغير من مكان لآخر؟

لعدد من الساعات لم أتحرك من كرسي أفكر بالكثير، أمي المريضة.. أقساط أختي الجامعية.. والديون التي خلفها زواج أُختي الوسطى.. أخي وأطفاله الخمسة.. والكثير بل الكثير من الأفكار التي تضغط علي حتى كادت تخنقني.

الجميع معتمد علي سوف أظل هنا أعمل كسائق وأبحث عن عمل آخر إذا أمكن، سألبي جميع إحتياجاتهم ولن ينقصهم شيء بوجودي، حينها سمعت آذان الفجر توضأت ومشيت مع العم خالد حتى المسجد نؤدي الفريضة.

وفي طريقة عودتنا أخبرني عن أول مرة أتى فيها إلى هنا وأنه حتى الآن ولمدة عشرين سنة لا زال يذهب لنفس المسجد، حدثني عن الألفة التي تنشأ عن أول مكان تجلس به في الغُربة..

أول طريق تسير عليه..

أول مطعم تشبع جوعك فيه..

أول وجه يبتسم حينما يراك..

عن اول أشياء كثيرة سوف تخلد في ذاكرتي للآبد.

رفضت الخضوع ولكن الأغلال كانت أثقل من أن أستطيع كسرها أو الإفلات منها، إستسلمت للأمر الواقع وتركت الأحداث تمر كما مقدر لها.

إنطلقنا في الصباح التالي والعم خالد يريني الأماكن المعتادة التي تذهب إليها العائلة، وهكذا صرت أكون معه في كل وقت وحين حتى تيقن أنني أصبحت على دراية بما يجب كان قد حان موعد رحيله.

وفي مساء ذلك اليوم جلس يحدثني مودعاً، كان في صوته شيءً من الحزن ولكن لمعت أعينه أنبأت عن سعادته بالعودة

أوصاني بالكثير من الأشياء لأني وفي منظروه شاب أحمق من حماقة الشجاعة و "دمي حار" كما يقول، كان في حديثه طيف من أبي المتوفي، بعد ثلاثة سنوات طوال إفقدته خلالها رأيته يتجسد على صورة العم خالد، لو أنه على قيد الحياة أظنه سيكون مثله، صبور وطويل البال، ضحكته رنانة ويأخذ كل شيء ببساطة.

لا يدري أحدنا أنه كبر حتى يفقد أحد والديه، حين يعود للمنزل فلا يراه، حين تستمر الحياة والشمس في الشروق والغروب وهو ما زال عند ذلك اليوم، عند تلك اللحظة التي لن يراه بعدها أبداً، لا شيء في هذا الكون قد يعزيك فقدان أحدهما، سيستمر هذا الجرح في النزيف فقط أنت ستعتاد على ذلك.

أيقظني من شرودي وهو يقول لي: الشيء الوحيد الذي عليك القلق بشأنه هو تلك الحياة ما بعد الموت، حين تدخل في ذلك "الشِبر" سيكون كل شيء هنا إما لجنة أو لنار، لذا أكثر من دعواته لي بالهدوء والسكينة ومراجعة كل شيء بعين العقل والمنطق ثم التنفيذ، علي بالروية والحلم وقليل من الحِكمة، كأنه يوصي ولي على إمارة ما وليس سائق لسيارة.

ولآخر مرة أنشد لمصطفى سيد أحمد بصوته العذب قائلاً:

يا ضلنا المرسم على رمل المسافة وشاگي من طول الـــــطريق

قول للبنية الخائف من نار الحرق

تحرق بيوت الفريق

قول ليه ما تخاف

وفي يدي النسمة بتجيب الأمل

والأمل بصبح طريق

والأصله في الجوف إندفن

لم تمطر يوم علينا

والفرح يملى المدينة

والبيوتات الحزينة

يا ضلنا

وكأن كل سكان تلك الأرض قد توحدوا على حب هذا الصوت، به خدر يصيب إذنيك ما أن يتسلل لحن أغنياته أليك، كنا نغني في تلك الليلة لوعةً وشوقاً حباً وغراماً، كنا نغني ملء أفواهنا وقلوبنا ملء أصوات حناجرنا.

أقبل علينا الفجر ونحن في حضرة الشعِر يلقي علي بما يحفظ وأُلقي بما يروق لي.

كانت تلك أخر فريضة صبح نصليها معاً في ذلك المسجد ولا أدري أن كانت ستكون الأخيرة في قادم أيامنا.

من بعدها حملتُ عنه حقائبه أوصلتها للسيارة ثم ذهب مودعاً أهل البيت، من عاش معهم طوال عشرين عام، قضاها بمُرها وحلوها بصحبتهم في صحته ومرضه وفي إبتهاجه وإمتعاضه رأيت الكثير من الدموع تزرف والعم خالد يغالب دموعه، كانت الصغيرة أكثرهم بكاءً لا تفلت يده إلا وتعود إليها مرة جديدة طالبةً منه عدم الرحيل.

بعد صعوبة تمكنت أختها على ما أظن من إبعادها، إنطلقنا للمطار وكانت أعينه تودع كل شيء،

كل طريق مر به..

كل ذِكرى في نفسه وقلبه..

كل موقف وكل أثر..

قال لي:

أنا الآن وبعد عشرون عام قضيتها في الغُربة أرى ما صنعت، بيت لعائلتي وسيارة لأبني وابنتي أكملت دراستها وبدأت في عملها الخاص أخذت زوجتي للعمرة وحققت جميع رغباتهم، كان تحقيقه صعباً وليس بسهل أخذ من صحتي عمري وقتي ضحكتي وقربي منهم، ولكن ألف لا بأس حين أعود وأنعم بقربهم من جديد، حين أكون معهم حتى أعوض كل ما فاتني، حين أتمتع بما تبقي لي من عمر وأنا بجوارهم، لا تتأخر مثلي وتأخذ كل هذا الوقت فالعمر يجري، حقق بأقصى ما تقدر كل ما تستطيع وعد أدراجك، عد بسرعة فالكثير ينتظرك والكل يترقبك، لا تتعود على مرارة الغُربة فتنسى حلاوة الوطن.

ودعته معاتباً أغبطه على حظه سوف يرجع وينعم بكل ما قال وأُقاسي أنا هنا البُعد والغُربة، لكنه أختياري وعلي المضي به قدماً مهما كان ما سيمر بي لن يكون إلا دافع يقويني ويستحثني على المواصلة.

أوصيته أو يوصل تحياتي لأرض السودان..

ترابه..

نيله..

بائعات الشاي والتسالي..

عاملي الورنيش..

المواصلات وكل ما يقع على عينه.

أخبرهم أنني أفتقدهم كثيرا ولكني سأعود يوما ما لا أدري متى ولكني سأعود حتماً...

الفصل الرابع

"نورة"

الفصام الإجتماعي؟

تعريفي للفِصام هو جلوسي مع ابنه عمي وإبتسامة عريضة على شفاهي ومن داخلي أمقت كل ما فيها. ولا أدري لم أنا مجبرة على الجلوس معاها حتى أثبت لها مدى حبي وكلانا يعرف أني لا أحبها.

بل أشعر أنني أكرهها كثيراً..

لا أدري كيف تسرب هذا السواد داخلي ناحيتها، لكنني حقاً لا أطيق إي شيء يخصها.

أكره تسريحة شعرها الجديدة..

فستانها الجديد..

لغتها الجديدة..

ولم على الإنسان التجديد ما خطب الروتين اليومي؟

أبهِ علة ما؟

دائما ما تدعوني بالعتيقة أو "دقة قديمة" نعم أنا عتيقة وأحب كل ما هو عتيق ما سبب إنزعاجك؟

في كل مرة تزورنا فيها تملي على أمي الكثير من الأشياء بخصوصي، علي تغير تصفيفة شعري العتادة وتغير أثاث غرفتي المتهالك، وتغير نمط حياتي والتخلص من ملابسي التي عفى عنها الزمن، ما شأنك أيتها الشمطاء بملابسي تسريحتي أو حتى غرفتي، لماذا تحشرين أنفك الكبير فيما لا يخصك.

لكن الذنب ذنب أمي هي من أعطتها الحق في التحدث في حياتي كما يحلو لها والحكم بتفاهة أفكاري أو سداجتها، علي دائما أن أكون مثلها حتى أرقى للمجتمع وإلا الجلوس في البيت أرحم من رؤية الناس لي بذلك الشكل.

لا أدري ما خطب الناس الكل يسعى وراء الملايين من الصفات الجديدة وأحياناً السخيفة.

أكتساب الأصدقاء..

اسرار الجاذبية..

قوة التركيز..

العقل الباطن..

إكتساب المزيد من الأصدقاء..

التحدث أمام الجمهور..

التنمية البشرية..

طريقة الإستخواذ على قلوب السيدات..

كيف تصبح رائد أعمال ناجح؟

كيف تكسب خمس دولارات في اليوم؟

كيف تكون صداقات متينة؟

كيف تسعد رئيسك في العمل؟

كيف وكيف وكيف والكثير من الكيف التي لا داعي لها.

لماذا لا يحظى الإنسان بالسكينة والهدوء، يكتفي بالقلة القليلة من الأصدقاء إذا كان محظوظ وقد إلتقى بهم.

يمارس نشاطه اليومي بمنتهى الروتينية، وعندما ينتهى اليوم يكون في فراشه وكوب من الشاي بالقرب منه، لم يخوض صراعات ويدخل في حروب مع نفسه والآخرين، سعياً وراء النجاح الخارق او الشهرة أو إي مكسب أخر.

لما لا يهون الإنسان الحياة على نفسه ويوقن أنها بعض لحظات سيذهب بعدها إلى غير عودة.

ولأني على دراية بهذه الحقيقة لم أغير شيء فيّ البتة ولمدة ثلاثة سنوات حافظت على تسريحة شعري ولم أغيرها ولو لمرة واحدة.

كنت أحضر بها كل المناسبات السعيدة والتعيسة العزائم التجمعات والرحلات، وكانت عندما تراني تقول أتت صاحبة الضفيرتين والبقية يضحكون علي.

لم أكن آبه بيهم لأني أحب ضفيراتي وأحب أنها تكرهها.

أظن أن كُرهي لها نابع من تلك المقارنات وجو المنافسة الذي كان بيننا.

فمن المستحيل أن يمر يوم من دون أن تذكر أمي أسمها أمامي، أو تقول لي:

لا تفعلي هذا بل ذلك حتى لا تستطيع ابنه عمك تجاوزك، أدرس حتى أتفوق عليها بدل أن تتفوق هي علي، أعتني بنفسي وجمالي حتى وقت إجتماعنا يتعلق نظر الجميع بي ولا يلقي لها أحد بالاً.

وعلي الإسراع والحصول على عريس يتقدم لخطبتي قبل أن تسبقني وتُخطب قبلي.

هكذا أمضيت معظم حياتي في منافسة معاها على أشياء لا تستحق حتى تعبت وإنهارت قواي.

كرهت كل ما يخصها وصرت أتجاهلها لا أجلسها ولا أتحدث معاها.

أخترت الأفضل لي ولصحتي النفسية فيما لا شك فيه لو أستمر الوضع بهذه الشاكلة سأجن يوما ما.

وأضحى هناك شيء جديد يشغل بالي.. ذلك الرجل الغريب في بيتنا.

الأفريقي صاحب الشخصية المتمردة، به شيءً ما ولكن ما هو؟

كنت أراقبه طوال الوقت ولم يبتسم ولو لمرة واحدة إلا في حضور بايا خالد.

آخخ يا بابا خالد لا أحد يعلم عن سر علاقتي بك.

قد كان شخص لا يعوض، في أحيانا كثيرة ألجأ إليه دوناً عن أبي الحقيقي وكان يحميني وكأني ابنته الحقيقية.

كان أول من علمني ركوب الدراجة وعالج جرح قدمي عندما وقعت على الأرض.

أول من حكيت له عن سر خوفي من المطر وصوت الرعد القوي.

أول من أكل معي المثلجات خِلسة ودون علم أحد من أهلي.

لم يشكو ولو لمرة من كثرة حديثي ومواضيعي "التافهة" كما تصنف من قبل أمي وأختي.

كان على إستعداد أن يجلس يستمع لي حتى الصباح وحتى ما بعد الصباح.

بلغته تلك وصوته الحنون يغني لي أغنيات وطنه قي أغلب الأحيان كنت لا أفقه عما يقوله حرفاً ولكني أنتشي طرباً لصوته، حكى لي عن سيدات بلاده وكم هن عظيمات حدثني عن حواء الطقطاقة وحاجة عثمان بله أو كابتن طيران سودانية، عن عشة الفلاتية التي تمردت على الجموع حتى صدح صوتها، عن كثير من العظيمات اللائي رفضن رفضن الجلوس مكتوفات الأيدي وعملن في كل شيء.

كان حديثه عنهن يمدني بالحماسة والشجاعة حتى أحارب من أجل أحلامي مثلهن.

الوداع

كانت المرة الأولى لي التي أودع فيها شخصاً عزيزاً على قلبي.

لم يكن وداعه سهلاً علي، فمجرد فكرة رحيله كانت تصيبني بالإنزعاج والزعر.

لماذا لا يبقى معانا ويرسل لعائلته حتى تأتيه مثل كل مرة ولكن بشكل نهائي. بيتنا كبير ولا شك سوف يسعنا جميعا.

كان بابا خالد غالياً علي وإثر غيابه تأثرت نفسيتي، فقدت شيءً مني برحيله. غارت عياني وشحُب لوني بهتت إبتسامتي وتكورت على نفسي.

يومها أمطرت السماء حسبتها حزينة مثلي وبكت من حزنها على فراقه.

إقتربت من نافذة غرفتي أنظر لذلك الغريب الجالس تحت المطر. كانت حالته تشي بشيءً ما، تراه يبكي ويخبأ دموعه بين قطرات المطر؟

أو أنه من هواة اللعب تحته؟

لكن جلوسه مريب، لم يتحرك ولو لسنتمتر واحد طوال الهطول ظل في مكانه وكأنه تمثال.

تمنيت لو لدي نصف شجاعته حتى أجلس تحت المطر ألعب مع القطرات وأدعها تداعب وجهي.

لنصف ساعة كنت جالس من غير أن تبارح مكانك شدني فضول كبير تجاهك.

ترى ما قصتك؟

ما سبب ثورانك وغضبك في ذلك اليوم؟

وما سبب هدوئك الآن؟

من سلبك إبتسامتك وهداك العبوس بدلاً عنها؟

شيءً ما فيك كان يغريني، لست كأحد عرفته من قبل لا تشبه أبناء عمومتي ولا تمت لهذا المجتمع بصلة.

خرجت معك في ذلك اليوم ومعي فلة، كانت المرة الأولى التي تقلنا فيها. ذهبنا إلى المحل التجاري حتى أتسوق للمرحلة الجديدة التي أقبل عليها.

حييتك حين صعدت للسيارة قائلة:

حياك الله

لم ترد علي حينها لاحت على وجهك إبتسامة باهتة عبرت بها عن سلامك.

كنت أتحدث مع فلة وكنت أنت صامتاً طوال الوقت وكأنك لست هنا.

أوصلتنا إلى المول دخلنا نتسوق وتركناك خارجاً بالقريب من البوابة.

عاتبتني فلة قائلة :

يالخفيفة ليش تكلمينه.

الحين السلام صار حرام؟

لا موب حرام لكن إذا يُبه دري ليسود عيشتك.

ومن وين بدرا إذا مو مكلتمتيه.

أحسن لا تقربي منه منظره موب مطمن.

ترى هذي عنصرية منك.

موب عنصرية بس أنا أخاف منه.

تكفين ما ابى اتكلم خلينا نخلص بسرعة وأرجع البيت.

جالك الرهاب الإجتماعي؟ والله ما أعرف كيف بتروحين الجامعة وانت ما بتتحملي تقعدي خمسة دقايق مع الناس.

مو شغلك.

راح تتعبين.

مو شغلك.

قضينا الساعة ونصف الساعة في إختيار ما يناسب "النيو لوك" كما تقول فلة.

كان ذوقي صعب ومعقد بعض الشيء، فأنا لا أحب الأشياء المزركشة كثيرة الأشكال والألوان. أعتمد على البساطة والرقي لون واحد سائد هادي وجميل. يعكس شخصيتي مع حذاء مريح والقليل من الأكسسوارات وعطر منعش.

وبعد أن أكملنا تبضعنا قالت فلة أنها نسيت شيء ما سوف تذهب لإحضاره. في تلك اللحظة أسرعت لمحل العطور الرجالية، لا أدري سبب فعلي ولكني أشتريت له عطر من عود الصندل.

أحب ذلك العطر لأنه عطر أحد أبطال رواياتي المفضلين، أظنني أشبه بك بشكل ما أو بصلة ما.

تسللت عندما رأيتك من الشباك تخرج لتؤدي فرض العشاء. ذهبت للمُلحق وفتحت الباب على مهل وأنا أطالع داخله، لأول مرة وطوال حياتي أستطعت الدوس على هذه البقعة من بيتنا، المنطقة المحظورة التي كانت التفكير فيها محرماً فما بالك بالجلوس في كرسي بها.

رحت أتحسس السرير..

الكرسي الذي قربه..

فانوس الإضاءة..

الطاولة وما عليها من كتب..

كانت رائحة السجائر التي تملئ الغرفة أكثر ما شدني، كانت غريبة ليست كالتي أعرفها لكنها مميزة بشكل ما..

ربما مثلك..

لدقائق عِدة كنت أطالع كل ما حولي بأعين فاحصة تود الألمام بكل ما ترى من تفاصيل.

وقبل خروجي نثرت عطري على وسادتك وفراشك لا أدري ما السبب ولكني فعلتها.

كانت إبتسامة غبية توجد على محياي وشعور مخيف مضطرب ولكنه لذيذ يتسلل إلى داخلي.

تراجعت بخطوات بطيئة وأنا أطالع المكان للمرة الأخيرة، وأستنشق أثر جريمتي ينتشر عبر الأجواء يصول ويحول في الغرفة محكمة الإغلاق.

خرجت مسرعة خوفاً من أن يراني أحد ولم ألحظ تلك الدرجة من السلم حتى كدت أقلع لولاك..

لولا يديك التي تمسكت بي في تلك اللحظة..

لولا وجودك في ذلك التوقيت..

ولولا سرعتك في إلتقاطي لكنت تعرضت لحادث مؤلم لا محالة..

كنت أمامي بقامتك المهيبة..

يديك القويتين..

وصدرك العريض..

كنتُ بالقرب من قلبك وأنا أسمع نبضاته تدق وتدق وتدق

قلت لي: يا ساتر انت كويسة؟

ما تكون جاتك حاجة؟

لم أستطع الرد عليك تعلثم لساني وتعقد وكأني لا أعرف كيف أتحدث، إبتعدت عنك وأنا أجري وقلبي يكاد ينخلع عن صدري من شدة الفزع.

الفصل الخامس

"عمران"

عقب ذهاب العم خالد وبعد ثلاثة أشهر قضيتها بصحبته أضحى الوضع أصبع مما كان.

وجوده خفف الكثير من وطئ هذه الأيام على قلبي. ولكن برحيله كنت كمن غطس في بحر عميق لا قرار له.

كنت أقضي معظم الوقت وأنا أطالع السقف وأفكر ماذا أفعل،

لم أكن قد أقتنعت حتى ذلك الوقت بالمضي قدماً بهذه الوظيفة التي تعد مهانة لي لا أكثر.

ولكن الكثير من الضغوطات تطوق عنقي ولا أتمكن من التنصل منها ولا سبيل غير حلها، لذلك أثرت البقاء على مضض وربما يكون هو الخير الخفي المدسوس في داخل الشر الظاهر.

أخذت أحد الكتب خاصة العم الخالد والتي آلت إليه بعد رحيله عندما تبرع لي بها. كانت كثيرة بحيث شغلت أكثر من ثلاثة أرباع الغرفة. كتب عن الفلسفة الأدب القديم والمعاصر التاريخ الشِعر. لكن في حالتي لم أكن بحالة لشِعر أو فلسفة أحتاج إلى الحب بل الكثير منه.

مشاعري متسربة ومتذبذبة ومقياس ريختر يتهاوى صعوداً وهبوطاً بلا هوادة ما بين عشق جارف أو وداع صار قاب قوسين أو أدنى.

وقعت عيناي على رواية "أحببتك أكثر مما ينبغي" لكاتبتها المفضلة أثير عبدالله النمشي، تقول عنها نجلة أحلام مستغانمي وأنها أمها الروحية ولو كان ذلك بالنسبة لها فقط.

تقضي ساعات في وصف روعة ما تخطه أقلامهن، تفكر كثيراً ماذا قد تفعل أحلام حتى تخرج بكل تكل التشبيهات والجمل والحبكة الدرامية "الرهيبة" كما توصفها.

لم أكن أشاركها الحديث في ذلك الوقت لأني لا أعرف عن أي روعة كانت تتحدث، ولكن الآن وبعد أن تناولت الكتاب بين يدي ورحت أتصفحه بغير هُدى، وبصورة عشوائية فتحت صفحة من المنتصف وقرأت بداية الفقرة، شدني ما كتبته ورجعت حتى بداية الكتاب مستفسراً عن سبب زخم كل تلك المشاعر صفحة وراء أخرى إلى أن أكملته والفجر على مشارف الحضور.

وضعت الكتاب وفي نفسي مشاعر متناقضة ومتضاربة من هو ذلك العزيز حتى يفعل فعلته تلك بفتاة مثل جمانة؟

فتاة من رِقتها تخالها خُلقت من قطن أو غزل بنات على ما أظن.

كيف لذلك العزيز أن يقسو قلبه عليها بهذا الشكل، حينها فقط تذكرت أنها أحياناً تناديني بعزيز.

هل تراني أشبهه ذلك العزيز؟

لم يكن الوقت مناسباً للإتصال إغتسلت وذهبت لأداء الفريضة.

وحين عودتي جلست أعد الدقائق حتى طلعت الشمس وهاتفتها:

صباح الخير يا كل الخير.

في نظرك أنا بشبه عزيز؟

يعني ضارب لي من صباح الرحمن عشان كده.

جاوبي على سؤالي.

أي بتشبهو شايف تصرفاتك دي زي تصرفاتو.

قاعد أعاملك بقسوة؟

لا لكن حارمني من تفاصيلك وما بتحكي لي حاجات كتيرة عنك.

لأنها بتخصني وما بتستفيدي شيء من معرفتها.

ياخ أنا عايزة أعرف .

طيب خير.
أي أعمل كده واتهرب مني زي كل مرة يا عزيز.

أقفلت الخط في وجهي وتركتني مشدوه مجذوب لا أدري ما رابط الصلة التي تجمع بيننا بحيث تراني هو؟
نعم قد أكون متحفظ بعض الشيء وأحاول قدر المستطاع الظهور لها كما يليق وينبغي، لا أحب أن تراني وأنا ضعيف ومهزوم فتهتزز صورتي كرجل في عينها، حتى إذا كان ذلك سوف يغضبها عليها تقبل واقعي وأنه أنا ولن أتغير.

على صعيد آخر بدأت أكون علاقات مع المكان وأحسست بالألفة تجاه غرفتي، أسير في الطرقات ليلاً أسلم على الشباب أكثرهم يرد والقلة القليلة يطالعني بنظرات وددت لو خلعت عينيه من مكانها، ولكني أتحلى بالصبر والحُلم كما أوصاني العم خالد لأنها مواقف لطالما ستمر بي.

كنت في الخارج أمام محل تجاري ضخم "يا حليل عفراء مول أكبر مول شفتو في حياتي وكان تاج محل بالنسبة لينا" حاملاً هاتفي أراسل تلك العنيدة في محاولة أخيرة لإسترضائها.

على أثر وقع خطوات تتقدم مني لم أرفع رأسي لأرى صاحبها، فقط صاح صوت طفولي مبكر الذكورة:

تراك تغسل سيارات؟

تكفى أغسلي سيارتي وبتاخد ريالات تخليك غني وترجع بلدك مليتو علينا الديرة.

للحظات فكرت فيما سأفعل وتذكرت نظرية الفستق التي لخصتها لي، غالباً ما سأضرب هذا الفتى على وجهه قد أكسر انفه على أقل تقدير أو يتصدع سِنه، الشهود كبير وستأتي الشرطة وتأخذنا للمركز، ولو كان محظوظ سيكون لديه من هو في الشرطة وإذا لم يتم ترحيلي سوف أسجن لا محالة وأغرم، في هذا الوقت حيث لا تملك عائلتي المالك الكافي حتى تفديني، وعودتي سوف تكون القصبة التي قصمت ظهر البعير، بسبب ما كابدناه جميعاً في سبيل سفري، وبعد مراجعة لكل ما سيحدث لو تهورت أستغفرت في داخلي وربته على كتفه وأنا أقول: ربنا يهديني ويهديك.

كانت الصدمة البادية على وجهه كبيرة أثر ردي الصاعق وغير المتوقع تراجع للخلف وسط ضحكات رفاقه، أقترب مني حاج وقال لي: والله أنك وريته درس في الأدب والأخلاق الله يحي أصلك.

فكرت في تلك اللحظة لو لم أكن بدارية بنظرية الفستق لتعقدت الأمور وآلت للأسوء بكل تأكيد، وإن لم تكوني قد حكيتها لي ماذا كنت سأفعل؟

الحمدلله على تدخلاتك اللطيفة حتى وأنت بعيدة عني جغرافياً وليس قلبياً.

حالما إضلعت على فراشي فكرت فيك كان يجيب علي إخبارك بالموقف وكيفية تصرفي السليم. فأنت أكثر من يسر بهذه المواقف، وأحب أن أرى نظرة الفخر في عينيك عندما أتصرف بطريقة غير متهورة كما تحبين مني أن أفعل دائماً.

كنت متصلة ولكنك تجاهلتني ما زلتي غاضبة مني، ولكن مع إصراري الكبير والكثير من الرسائل التي بعثتها لك خضعتِ في النهاية وتكرمتي علي بالرد قائلة:

خير عايز شنو أنا ما فاضية ليك وراي شغل.

قصصت لك عن موقفي وتصرفي وكنت قد توقعت ردت فعلك ونبرة صوتك المحتفية وأنت تقولي لي: شايف كيف أنت لو بتسمع كلامي كان بقيت في حته تانية، المهم برافو عليك وأنا فخورة بيك، ودايما خليك ماسك نفسك وما تدخل في مصايب عشان ما أقعد أنتظرك تاني عشرة سنة على بال ما تتطلع من السجن تكون نفسك وتعرسني.

كان صوتها مبهجاً بمجرد سماعه تدب الحياة في أواصلي من جديد، مضت الدقائق لا يدري كلاً منا كيف إنقضى كل ذلك الوقت ونحن نتحدث حتى تنبهت على دخول وقت الصلاة.

على عجل توضأت ورحت أهرول في الطريق حتى أصل للمسجد، وكانت الركعة الأولى قد فاتتني وفي طريق عودتي إستغفرت علني أعوض عن إنشغالي وتقصيري.

ما لم أكن أتوقع رؤية تلك الصغيرة في غرفتي، الصغيرة التي قد أوصاني عليها العم خالد وقال عنها حبيبة قلبه وابنته الغائبة.

ولكن ماذا تفعل في غرفتي؟

وجدتها مصادفة تخرج منها على عجل حتى كادت تسقط لولا تمسكي بها، فُزغت مني وأخذت تركض بعيداً وما زال عقلي مشوش من وجودها في هذا الوقت.

دلفت وعطرغريب في الجو لكنه جميل وأنيق، إستلقيت على وسادتي وكان أقوى أظنها رشتهُ عليها، لكنها كانت رائحة منعشة وتبعث على التفكير في كل شيء جميل.

فكرت في يوم عودتي..

إحتضان أمي وإخوتي..

في الحبيبة التي قد تنتظرني..

لا أدري لكني وبعد رحلة عراك مع الأرق دامت لشهور رحت في نوم عميق.

الفصل السادس

"نورة"

ياويلي يكاد قلبي يخرج من مكانه..

كنت أجري وأنا لا أرى أمامي حتى كدت أسقط مرتين قبل وصولي لغرفتي. دستتُ نفسي داخل الفراش وما زلت مذهولة مما حدث. تتعالى رئتاي بفعل الهواء المضطرب فيهما من تعب تلك المغامرة. أحسستُ ببرود قدمي وكأن أطرافي قد شُلت للحظة ما. كنت أطالع السواد تحت فراشي وأرجع مع حدث معي بأسلوب "السلوموشن"

خرجتُ من غرفته بعد أن رششتُ العطر على وسادته..
كدت أسقط وأمسك بي..
وكان قريباً مني..
سمعت دقات قلبه..
حدثني بذلك الصوت الرجولي..
يا الله سوف أموت في هذه الليلة..
" والله لوعلم حد بالصار لتطيح رقبتي ورقبته"

نمت وقد كان هو كل ما أفكر فيه.

كنت أحمر خجلاً ولا أدري كيف سأنظر إليه بعد فعلتي البارحة. وجب عليه أخذي للجامعة كونه أول يوم لي.

جاءت أمي لغرفتنا وطلبت مني الإهتمام بمظهري حتى أكون لائقة بالمكان الجديد الذي سوف أعكس فيه تربية عائلتي ومركزنا الإجتماعي، نعم كل ما يهمها هو نظرة الناس لنا ومهما كان السبب عليهم أن يرونا في أفضل حال.

إنتقيت إحدى العباءات التي إشتريتها في اليوم السابق، كانت جميلة بشكل بسيط وأنيق أرتديت معها ساعة يد رقيقة ورشتت عطري بعد أن أكحلت عيني وأصبحت جاهزة.

أملت أمي علي الكثير من الوصايا إلى أن أوصلتني لباب الدار، وهي تتحدث لي عن بنات رفيقاتها اللاتي يجب علي مصادقتنهن حتى لا أكون وحيدة كالعادة، وكأني شكوت لهم عن وحدتي أنا سعيدة هكذا.

لم أرفع رأسي عن الأرض قط حتى عندما دلفت لداخل السيارة كنت أطالع موضع قدمي.

وطول الطريق لم أنبث ببنت شفه وهو كذلك كان صامتاً طوال الوقت كعادته. أوصلني حيث الجامعة وسألني عن موعد خروجي وكنت لا أعرف بعد، أخبرته أني سأبعث له برسالة حالما أخرج هز رأسه في تفهم، حينما همتت بالخروج أحسست أنه على وشك قول شيء ما ولكنه أحجب عنه في النهاية.

ما إن سرت خطوتين دارت الكثير من الأفكار في رأسي، حاولت متابعة المشي ولكن خارت قواي ولم أقوى على الوقوف. جلست على الأرض وإنهمرت الدموع من أعيني، كنت أرتجف من الخوف وكأن "البعبع" ينتظرني في الداخل.

ما أن رأيتني حتى هرعت لمساعدتني حملتني عن الأرض وأجلستني على الكرسي بعد أن فتحت الباب وأفسحت المجال لي كي اتنفس، وسألتني وصوتك به الكثير من الخوف والحنية:

انت كويسة؟

أوديك المستشفى؟

كان صوتي يخرج متقطعاً وأنا أقول:

تكفى رجعني البيت ما أبى أروح.

هززت رأسك في تفهم وأدرت محرك السيارة متخذاً طريق العودة، وبين الحين والأخر كنت تطالعني من مرآتك أظنك تطمئن علي.

فتحت أمي باب الدار مفزوعة من رؤيتي وأنا عادة في هذا الوقت المبكر. لكن حالتي لم تكن تسمح لي بالحديث أو الشرح. دستت نفسي داخل فراشي بعد أقفلت على نفسي والكثير من الأفكار تعصف برأسي، حقا كنت خائفة مثل طفلة في أول يوم لها في الحضانة، كنت خائفة من كيفية التعامل مع ذلك المجتمع الغريب ومن الأصدقاء الذين سوف أقابلهم، خلتني سوف أقع وأنا أمشي ويضحك الجميع بي، أو يدوس أحد المارة على طرف ثوبي فينشق ويظهر ما تحته توقعت السيناريو الأسوء لذلك أرتبعت وجاءتني تلك النوبة.

بعد محاولات متكررة من أمي فتحتُ لها الباب جلست بالقرب مني وأمسكت بيدي مستفسرة عما جرى، كانت حنونة في مثل تلك المرات القليلة حيث مزاجها يكون في مكانه وتعاملني مثل أم وابنتها، وبما أن الوضع هكذا أستغليته لصالحي ورحت أبكي، سألت في قلق:

شو السالفة يانور ليش ما تروحين الجامعة؟

أخاف أوقع قدام الناس.

ليش توقعين وين صايرة عيونك؟

ما أدري أخاف وبس.

ترى انت تحبين الدلع.

خليني بروحي، تبون اروح الجامعة اكون صداقات ويا بنات رفيقاتك وانا غرفة أستقبل فيها صديقاتي ما عندي.

تكفين انت كبرتي على الدلع.

اي وقت تريدون انا كبيرة وما يصير ادلع، لا اسافر ولا اسوق سيارة زي ما هيفاء تسوق ولا اطلع من البيت بروحي، تبون اموت روحي اريحكم وارتاح؟

أستغفري تبي تقابلي ربك وانت كافرة.

أستغفر الله العظيم واتوب من كل ذنب عظيم، خليني بروحي.

وبعد خروجها مسحت ما تبقى من دمع على خدي وأبتسمت فلم أكن أعني على كل حال أني سأنتحر.

الإنتحار بالنسبة لي رفاهية وسيلة الضعفاء فاقدي الإرادة، يفضلون الراحة المؤقتة على مواصلة السعي، ولكن من وجهة نظري علي بالمقاتلة مهما كانت الظروف سوف أصل لما أريد، ولما علي التعجيل بحدث سوف يكون لا محالة؟

سواء شئت أو أبيت سوف يأتي يوما ما لا أكون فيه على وجه هذه الأرض، فبدلاً من الإستمتاع بأيامي المحدودة أُنهي وقتي بيدي؟ طبعا لا سأعيش كل لحظة من حياتي وأستمتع برحلتي.

لكن يبدو أن ما قلته قد أثر علي أمي بشكل إيجابي، وفي المساء آتي أبي لغرفتنا يسأل عن حالي، وكما قال هو قلق علي ويريد أن يفعل ما يسعدني، وكانت البشارة أن مهندسة سوف تأتي في الصباح حتى تجهز لي غرفة كما أحب.

لم أعطي إي ردت فعل وكأنه حدث عادي ولكن ما أن غادر الغرفة حتى صرت أنطط فوق السرير مثل كنغر وليد من فرط فرحي.

وطالما كان والدي يوفي بوعوده في الصباح أتت المهندسة وجلست معي بعد أن رأت الغرفة وأخذت مقاساتها.

كانت تسألني عن تصوري والحالة التي أريدها بها وقد سجلت كل ملاحظاتي.

لكن ذلك لم يثني أمي عن إبداء قلقها جراء إتخاذي غرفة منفصلة. فقد رفضت قبل ذلك طلبي هذا وجعلتني وفلة نقيم في غرفة واحدة ونتقاسم فيها كل شيء سويا.

لطالما كانت مشكلتها مع الأبواب الموصدة. ففي رأيها خلف كل باب موعد إحتمال جريمة مشروعة.

كانت لا تثق بي وأظنها ما زالت كذلك، دائما ما تفتش في هاتفي تعرف رقمه السري، تتلصص على سجل المكالمات علني أحادث أحد غريب. تطوف في الواتساب باحثة بين الدردشات عن رسائل حب المراهقات التي تحكي عنهن في صورة دراما وتدس داخل حكاياتها الكثير من التحذيرات. وتمت مصادقتي في الفيس بوك حتى تكون على دراية كاملة بكل ما أنشر وأتابع. وقد منعت عني سناب شات وقالت أنه داعي للإختلاط والتفتن.

وبالرغم من كل حرصها لم تكن تعرف بوجود صفحة أخرى لي على الفيس بوك. صفحة قد أنشئتها سراً حتى أحظى بالقليل من الحرية في التعبير عما أريد. أعبر فيها عن نبذي لكل العادات والتقاليد البالية. اتغنى فيها بالحب وعن المحبين، من المؤكد لو أنها رأتني أو عرفت بوجودها لفصلت عنقي عن جسدي.

وفي تلك الليلة دخلت أبحث عن سر الأفريقي القاطن عندنا.. ذلك الغريب المثير..وبعد محاولات أكلت نصف ليلي وجدت ضالتي.

كانت صفحته مثله غامضة ولكن مثيرة من النادر أن ينشر ولكن إذا حدث لا يكون شيء عادي.

يكتب بعمق أظنها إقتباسات تمسه تحديداً، عن الوطن تغنى وعن الحبيبة وما آلت إليه حياته بعد فراق والده العزيز.

كان في حديثه حزن خفي إستفز مواطن الفضول لدي حتى أعرف قصته الكاملة.

في الصباح جاءت مهندسة الديكور من جديد وفي يدها الكثير من الكتالوجات، في محاولة منها لمساعدتي في إختيار شكل غرفتي، من حيث الأضواء السرير الألوان كانت تساعدني في كل شيء، وفي نهاية جلستنا أخبرتني أنه وبعد ثلاثة أيام ستكون غرفتي جاهزة، كنت أترحق شوقاً من الحماسة لا أستطيع الصبر أريدها الآن.

عقب ثلاثة أيام طوال كانت غرفتي جاهزة، أخذتني فلة وأنا مغمضة العينين وعدت حتى ثلاثة ثم أزالت الغطاء ورأيتها. كانت كما كنت أتخيلها او أظنها أجمل..

لوني السماوي المحبب على الجدران..

فراشي الأثير وكرسي وطاولة..

رفوفي وكتبي..

المصباح على شكل غيمة..

خزانتي البيضاء..

مرآتي..
كان كل شيء مثالي ويشبهني في بساطته ورقته.

كنت أنظر بعيون دامعة لأحد أحلامي الذي صار واقع، تحقق حلمي وأصبح لدي غرفة..غرفة خاصة بي وحدي.

ومنذ ذلك اليوم لم أحاول الذهاب إلى الجامعة مرة أخرى، وبما أنه قد تم تنفيذ جُل مطالبي آل إلى الذهاب ولو على مضض.
في الواحدة بعد منتصف تلك الليلة تسللت للخارج بعد أن غطى الجميع في نوم عميق. خرجت على مهل للحديقة الخلفية حيث لا أحد يذهب إلى هناك غيري. كنت أحمل علبة سجائري والكبريت داخل ملابسي. جلست على الطوب الذي قمت برصه وأشعلتها. كنت قد إنقطعت عنها لمدة ثلاثة أسابيع لم أستطع خلالها التحصل عليها.

تذكرت تلك المغامرة عندما ذهبت أشتريها أول مرة، حيث غطيت وجهي وسرت حتى أبعد بقالة عن بيتنا. وعندما حادثني البائع تكلمت معه بالإشارة حتى لا يعرف صوتي. وبما أني لا أدري أبسط إشارة عن هذه اللغة لم يفهم مني شيء. فكتبت له على ورقة وبخط مثل رقص الدجاج

متحرزة أن يتم كشفي من خلال خطي، كتبت له أني أريد سجائر. طالعني وقد رفض طلبي فخططت له من جديد أنها من أجل أبي المقعد لا يستطيع أن يأتي حتى هنا. تأثر لحالته ودعى له بالشفاء حملتها وأنا أدعي في داخلي حتى لا تتحقق النبؤة غفر الله لي كذبي وحفظ صحة والدي.

وبينما أزفر نفس الدخان في إستمتاع فجأة إنطلق نور قوي في عيني لم أكن أقوى على الحِراك.

تصمغ جسدي في مكانه وصاحب الظل يتقدم روايدا رويدا. ثم صاح بصوته القوي:

انت قاعدة هنا بتعملي شنو؟

لم أستطع الرد وعقاب السجارة ما زال في يدي، أقترب مني وأخذها يتأكد منها ثم قال:

انت بتشربي سجاير؟

تكفى ما تقول لاحد والله يُبه إذا درى بهد البيت فوق راسي.

وقت انت بتخافي بتعملي الغلط لي؟

ليش انتو وقت تشربونها يكون عادي اما اذا بنت تسجر يكون غلط.

لينا نحن برضو غلط خلي انت، بتدمري صحتك بيدك.

ترى مو صحتي بس المتدمرة.

ما اشوفك بتشربيها تاني والا بكلم ابوك.

عادتي السيئة الوحيدة.

ولي يكون عندك عادة سيئة من الأساس؟

ترى انا انسان موب ملاك.

ونعمة بالله لكن برضو تحذيري واضح، ما اشوفك ولا المحك حتى وانت شايلاها في يدك والا بكون لي معاك تصرف تاني.

طيب طيب.

وحينما كنت على وشك المغادرة إذا بصوته يصدح من جديد:

المرة الفاتت كنت في غرفتي بتعملي شنو؟

ترددت كثيراً ولم أدري بماذا أجيب، هل أخبره أن الفضول من كان يحركني؟

أم أني كنت أسعى وراء معرفة سره الغامض؟

ولكن خلال ثواني لمعت فكرة أو كذبة في رأسي قائلة:

كنت أريد أرش فيها عطر يمه موصتني عليه.

هسي الريحة عندك؟

تقصد مالت هداك اليوم؟

اي لوعندك عايزة.

حاضر دقيقة.

هرعت من فوري وضربات قلبي تكاد تكون مسموعة يا لي من غبية كيف نسيت أمره؟

وما أن أختفيت عن أنظاره حتى صرت أجري وأنط على السلم، بحثت بين الأدراج حتى تعرثت به أصابعي وإلتقطه.

عدت إليه والزجاجة في يدي وعندما وصلت كان يدخن السيجارة التي منعني منها منذ قليل.

ترى هذا موب عدل.

انا راجل.

وش يعني كونك رجال بعطيك الصلاحيات تمنع وتسمح.

ما قصة صلاحيات لكن انا راجل وجسمي بتحمل اما انت جسمك ضعيف.

انت تقدر تتحمل آلام الولادة؟

ما تلخبطي الكيمان.

وش تقصد؟

ما تدخلي المواضيع في بعض.

ترى كلامك موب صحيح.

انت عايزة تغالطي صاح؟

جلسنا قرابة الساعتين نتناقش حول التمييز المجتمعي بين الرجل والمرأة. لم يكن مراسه سهل فلديه حجج وبراهين على كل أقواله. ولكني أيضاً لم أكن بالهينة ودافعت عن معتقداتي وآرائي بكل قوة.

وفي نهاية حديثنا عندما قارب الصبح على النهوض من فراش النوم، أحسست بشيء في أعماقي، لأول مرة في حياتي يتحاور معي رجل بهذه الطريقة.

فعندنا لا صوت للمرآة وعليها الإنقياد لأوامر وليها فقط.

كان إحساس غريب ولكنه شهي يتغلغل فيّ وينشر السعادة بداخلي.

الفصل السابع
"عمران"

هل تعاني إنفصام في الشخصية؟

أعتقد ذلك أو أنها مصابة بتعدد الشخصيات، فما وصفه لي العم خالد عن تلك الطفلة الرقيقة التي تربت علي يده لا تشبه التي أمامي، تارة تكون ضعيفة ولا تقوى على مواجهة الصعاب، وفي تارة أخرى تخرج من داخلها مُهرة متمردة لا يروضها أمهر فارس.

هي مختلفة ولكن مميزة فيها ما يشي بالغرابة، ولكن تلك الغرابة التي تجذبك نحوها، من خلال حديثها معي تبين لي للكثير من معتقداتها، تكره المجتمع بكل قيوده تتمنى لو كانت رجل حتى تنعم بالحرية، ومفهومها عنها معقد جداً، لو كانت رجل لكانت فعلت الكثير الحمدلله أنها جاءت فتاة.

لم تكن مرتي الأولى التي أرى فيها فتاة تدخن ولكن كانت غريبة، ولفترة لا بأس بها أرتبط تدخين الفتاة في ذهني بأفكار كثيرة قد تكون معقدة للبعض ولكن في نظري تصرف غير مقبول.

ولكن لا يحق لنا منعها والسماح "للذكر المبجل" كما تقول.

في كلامها وجهة نظر ولكن لم تقنعني، فهمها كانت الأسباب التي في رأيها هي صحيحة ومن حقها لا يجب أن تدخن. فعلى صحتها يقوم نصف المجتمع.

كيف تربي العيال وهي نصف صحيحة؟

وكيف تكون قدوة حسنة وهم يرونها تجسد الأفعال الخاطئة أمامهم؟

من أجلها أولاً ومن أجل الرسالة السامية التي تؤديها في مجتمعها وحياتها عليها المحافظة على صحتها.

توالت بعد ذلك "جلسات السمر" كما كانت تقول عنها. خلال الليالي المتفرقة التي يكون فيها كلانا في مزاج جيد للحديث، حيث نقضي معظم الليل في الثرثرة عما يهم كلاً منا.

كان الأرق حُجتي وكانت أسألتها من تجعل النوم يجافي أعيُنها.

في داخلي شيء غريب قد لا أعرف ما هو حالياً ولكن بالتأكيد ليس عادي، أصبحت أعرف ما حالتها النفسية من خلال صوتها، إذا كانت متعبة أو منهكة من الدراسة يصاحبها الفتور، وحينما تأتي بحجج جديدة تعزز أقاويلها تشتعل الحماسة من بين حروفها، وعندما تكون في تلك

الحالة من النادر ما تناقشني تكون منفتحة على الإستماع أفضل من ذي قبل، وكنت أستغلها حتى أفند على أقاويلي وتتقبلها برحابة صدر.

أصبحنا نمتلك شخصيتين إزدواجيتين، في الأولى نتعامل كغرباء أمام الناس أما الأخرى نكون فيها على سجيتنا، نتسامر فيما بيننا نضحك نشرح ما نمر به من مشاكل والكثير من الأشياء، وكان ذلك الشعور يقلقني للمرة الأولى التي أتحدث فيها ما فتاة بهذا الشكل.

دائما ما كان ذهني يصوره لي أن كل فتاة أتحدث معاها تظن أنني أحبها، ولكن "نورة" مختلفة ليست كأي فتاة، حالمة طموحة وتأمل بالكثير وأثق أنها سوف تصل، ليست تقليدية أو كما كنت أظن أنها ستكون عليه.

إنها مثل لعبة الماربيولا داخل كل شخصية منها توجد شخصية جديد.

الرابط فيما بيننا أصبح قوي لدرجة لم أكن أتوقعها، وكما أنها صارت تفهمني من نظرات عيوني كما صرت أفهمها من صوتها.

كانت لنا مغامرات سرية لا يعرف أحد عنها شيء، في الثانية بعد منتصف الليل نخرج حتى تتمشى فهي لا تحظى

بهذه الرفاهية خلال النهار، مغطية بالاسود من وجهها حتى أخمص قدميها وتسير بجواري، من يرانا لوهلة يظن أننا من عشيرة الجن أو بنا مس ما، ولكنها تكون في أوج سعادتها عندما تخطي خارج البيت حافية القدمين، تمشي على مهل تارة وفي تارة أخرى تركض عبر الطرقات طالبة مني اللحاق بها.

هي مغامرة مجنونة بكل ما تحمل الكلمة من معنى لا يكاد الخوف يعرف لقلبها سبيل، كثير ما حدثتني عن خطة هروبها من البيت وإن كنت سوف أساعدها على تحقيق حلمها بالهروب.

طبعا لم أوافق مع أقتناعها أنها وفي يوم ما سوف تجعلني أوافق، سردت علي تفاصيل الرحلة وكيف ستكون وإلى أين ستذهب حتى أنها كادت تجمع المبلغ الكافي لمغامرتها الشيقة، حاولت بكل ما أوتيت من صبر وحلم على جعلها تنسى هذه الفكرة ولكنها كانت مصرة وحينها وعدتها بأني سأكون لها بالمرصاد.عاتبتني حينها وصوتها يختنق بالبكاء لأول مرة تتخلى عن كبريائها وتبكي أمامي، قصت لي عن ما حلها بها وسبب حلمها بالهروب عن كل تلك العقد النفسية التي كبلت حياتها وقالت لي:

نعم لا يمكنني تغير ما جرى بالماضي ولكن المستقبل ملك يدي وسيكون كما أريد أنا ولا أحد غيري، وقتها علمت يقينا أن ما من شيء سوف يثنيها عن تحقيق حلمها.

في ذلك اليوم وأنا اقلها من الجامعة توقفنا عند المكتبة تريد بعض الكتب، كنت أنتظرها في الخارج عندما قدم إلي عدد من الشباب وترأى لي أنهم لا ينون على خير، لكني تذكرت نظرية الفستق وأخترت اللامبالاة حتى فاض بي الكيل، لم أكن لأسمح لهم بالتحدث عن وطني بتلك الطريقة لا يحق لأحد بالتنكيل عن وطني، وما بين شد وجذب في دقائق قليلة كنت قد ضربت وتعرضت للضرب، لكني لم أندم ولو للحظة واحدة فلوطني عرض ولن أسمح لأحد بالتدنيث بعرضي.

تم إقتيادنا إلى أقرب مركز الشرطة من مكان الحادث، حيث سجلت الحادثة و وضعت ومن معي في الحجز، مرت ساعات طويلة تعرفت فيها على "رفاق السجن المظاليم" كما سمينا انفسنا، تسامرنا وكأننا لسنا بحجز حتى أتى قرار الإفراج عني، ودعت الجميع وهم يغبطونني على سرعة إكتمال إجراءاتي التي تنبأ عن حب الكفيل لي، وفي الخارج وجدت كفيلي ومعه أحد أخر في إنتظاري وكانت ملامحه لا تشي بالخير.

تفاديا لما يكمن أن يحدث إنصرفت في صمت وقدت السيارة وكل منا لم ينطق بحرف واحد، لكن عندنا وصولنا وقبل نزوله قال لي بضع كلمات ما تفيد أن أتوخى الحذر في المرات القادمة ولا أتسبب بالمزيد من المشكلات.

هززت رأسي في تفهم ودلفت إلى ملجئي، كانت رائحة العطر قد عادت مرة ثانية وعرفت المصدر.

في الساعة الواحدة بتوقيتنا كنت في الخارج عند الحديقة في انتظارها، أتت تتسلل على مهل جلست بالقرب وظلت صامتة،

مالك الليلة القط اكل لسانك؟

خفت لا يطولك شي.

ما تخافي ما بتجيني عوجة تب.

ليش اتناقرتو؟

غلطو في عرضي.

الله يخليك تكفى ما تعيدها أخاف عليك لا تروح بين الرجلين.

ان شاء الله ما بحصل إلا كل خير.

أخرجت السيجارة من جيب سترتي أشعلت واحدة ورحت أُدخنها في صمت، لم تكن كعادتها شيء ما يشغل بالها ولكن ما هو؟

أطرقت رأسها حينا من الزمن وكانت السماء قد تجمعت فيها الغيوم، والجو يشير إلى انهمار امطار غزيرة في هذا البلد شحيح المطر، وبعد عدة دقائق بدأت القطرات بالنزول لم أبرح مكاني في حين انها ركضت تأوي نفسها تحت المظلة.

كانت تطالعني من مكانها المسقوف ناديتها:

تعالي المطر لا يأكل البشر.

صارت تضحك من غير أن تتحرك، أظنها مترددة هل تخاف المطر؟

كانت تقترب ببطء خطوة للأمام وتطالع السماء، وقفت بمقربة مني والجو أضحى بارداً، في تلك الأرض وسط الشجيرات الصغيرة والأزهار النائمة، ضحكت بنشوة وبعمق كما لم تضحك من قبل، ركضت في المكان على أطراف أصابعها لأولى مرة تجلس تحت المطر هكذا فسرت سر فرحتها بل وترقص أيضاً، وما أن سمعت صوت الرعد حتى إنقضت على يدي، قبضتها بكل ما تملك من قوة، قلت في محاولة مني لتخفيف خوفها:

ما تخافي الرعد برضو ما بياكل الناس.

ولكن رعبها استمر لعدة دقائق وما أن عاود الرعد من جديد حتى انغمست في داخلي، حاولت تهدئتها واخبرتها بأنها ليست مجبورة وإن كانت تخاف عليها بالدخول، لكنها طالعتني وقالت هامسة:

موب خايفه دامك معاي..

نطقت بتلك الكلمات وأخترقت بها صدري، وما هي إلا ثواني قليلة حتى التحمت شفتانا في لقائهم الأول تركتني بعدها حالماً بين الخيال والواقع وهربت.

الفصل الثامن

"فرحة"

هل يمكن لحب الطفولة أن يدوم؟

دائما ما يكون هناك حدث فارق في طفولة كلاً منا، شيء بعد حدثه لا يعود أي شيء مثل سابق عهده. تتبدل فيه الكثير من الأفكار النظريات وربما المشاعر و وفقاً له تترتب معطيات جديدة.

وفي ذلك اليوم تحديداً وقع الحدث الذي غير حياتي، عندما كنت أعود من المدرسة وأنا ابنه السبع سنوات، كنت وحيدة ولم أكون صداقات بعد حتى نمشي للمنزل سوياً.

وفي الطريق تعرض علي من هم أكبر مني سناً وحجماً، كانوا ثلاثة أحاطوا بي من كل جانب ولم يتركوا لي مهرب ألوذ به، أمتلئت عيناي بالدموع وسألتهم في إشفاق أن يدعوني وشأني، لكنهم لم يكترثوا لما أقول وأمتدت يد أحدهم يلعب بخصلات شعري المتدلية من تحت الحجاب، بكيت بصوت عالي فلم يكن هناك من ينقذني منهم.

حتى أتى صاحب ذلك الصوت الجهور كان يجري وتعلو أنفاسه وتهبط قال ليهم وكأنه يزأر أن يتركوني وشأني حتى

لا يحدث ما لا تحمد عقباه، وعندما لم يكترثوا لكلامه دارت بينهم مشاجرة صغيرة، ضَرب وضُرب فيها، لكنها لم يكن ليسمح لهم بالعبث معي.

طلب مني الهروب ولكني كنت في مكاني مشدوهة مما يحدث، وعندما نادوا بآخرين الكثرة غلبت الشجاعة عندها أمسك بيدي وهربنا.

جريت وجرى حتى كادنا نصل أطراف الحدود من سرعتنا هذا من كنت أعتقده في ذلك الوقت.

بعد أن تخلصنا منهم وقفنا نلتقط أنفاسنا بعد أن جلسنا على "مسطبه" على الطريق، وكان بجانبها "مزيرة" مدني منها بكوب من الماء فشرب هو.

كانت ثيابه ملء بالتراب وأنشق قميصه بحيث صار لا يصلح للذهاب للمدرسة، نفض الغبار عن شعره وسألني أن كنت بخير، هززت رأسي في إيجاب وما زالت الدموع على خدي.

بعدها بدأت رحلة العودة إلى البيت وكنت قد ضللت الطريق؛ فتلك المرة الأولى التي أبتعد فيها عن بيتي وبمفردي.

قضينا ساعتين نلف وندور في نفس المكان إلى أن أهتدى إلى طريق البيت وكانت أمي نتظرني في الخارج والخوف بادي على وجهها.

كانت تطالعه بنظرات غاضبة وكأنه قام بإختطافي ودعني عند باب البيت ومضى في طريقه.

في الداخل أخبرت والدتي عن المغامرة التي خضناها وسبب تأخري حتى هذا الوقت، فقررت أنه ومن الآن وصاعداً لن آتي بمفردي وسوف تتحدث مع بعض بنات الحي حتى يكّون بجانبي، ولن تدع أولئك الأشقياء من غير عقاب.

كان بي شعور لا أعرفه.. هل الصغار يعرفون الحب؟

أظنني أحببته...

سنة تليها أخرى وعظم ذلك الشعور في داخلي، لم أتجرأ يوماً على محادثته ولكن نظراتي قالت له الكثير.

في كل مرة أراه فيها يدق قلبي وكأن به عُرس ما، أرى الفراشات ورد الياسمين وأشمه رائحة الريحان الدنيا تصبح وردي وردي وردي.

وفي ليلة وأنا عادة من الجامعة بعد أن كان الزحام خانق وتأخرت أكثر من المعتاد في الطريق، وصلت وقد غطى الظلام على كل شيء، ومن قلة الأضواء الخارجية في حينا فكان مخيف في الليل، وبه الكثير من الكلاب الضالة.

على عجل كنت أمشي محاولة تقليص المسافة والوصول بسرعة خشية ان يصيبني شيء ما وأنا بمفردي، حتى سمعت ذلك الصوت الذي تزلزل لسماعه قلبي، كان على بُعد بضعة خطوات مني، أتقترب وقال:

انتظري بوصلك معاي.

في طريق واحد يضم كلانا مشى في محازاة لي، كم تمنيت لو كنت أسكن في الهند أو بلاد ما وراء الرافدين حتى نسير إلى ما لا نهاية، لم أسمع منه إي شيء عدا صوت أنفاسه وشممت عطره الشذي، قال بعد شيء من الصمت وعندما كنا على بُعد خطوات من منزلي:

من غير لف ولا دوران انا عايزك بالحلال وعلى سنة الله ورسوله، لو موافقة بجيب أهلي ونطلبك من ابوك.

كالصاعقة وقع كلامه علي، في زمن تقضي فيه معظم بنات جيلي سنوات طوال في الحب، وبعد ذلك قد يجتمع الأحباء أو لا يجتمعون، بسبب ظروف كثيرة أو ربما ظروف يخترعونها هم.

كان إيماني بالحب متذبذب بعد كل تلك القصص التي لا تتوج بالزواج، أو الزواج من بعد حب كبير ولكن رغم ذلك ينتهي بالفشل.

لكن كيف؟

متى؟

أين؟

من عظم وقع الصدمة هزت وجداني وكل ما فيّ..

هل يحبني؟

هل يُعد هذا إعتراف؟

هل يتهيأ لي ما حدث؟

دخلت أختي علي وإبتسامة بلهاء مرسومة على وجهها جلست بقربي وقالت:

حبيب القلب اتكلم مع ابوك وقال داير يعرسك.

أنتفض قلبي من مكانه وكذلك قدامي، صرت أتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً في توتر واضح.

أرتفع الادرينالين في دمي وتغلغلت أطرافي بالحماسة،

فقالت لي مرة أخرى مؤكدة الخبر:

لو موافقة بجو يوم الجمعة ويعملوا الخطوبة، إستخيري وفكري كويس وأن شاء الله بحصل كل خير.

لم أبرح سجادتي في تلك الليلة، كنت أناجي الله أن يكون هو الخير الذي طال إنتظاره، طلع علي الصبح وأنا في مكاني أتضرع وأرجو من كل قلبي أن يكون لي.

جلست معي أمي في ذلك اليوم وأخذت تحدثني عنه من حكم علاقتها الوثيقة مع والدته، لكنها لم تكن تدري ألا داعي لكل الذي تقوله؛ فالقلب يحب ويهوى، لكني لم أبح بمكنونات قلبي وأرجعت القرار إليهم في محاولة لستر حبي عنهم.

مضت الأيام سريعاً او هكذا خيل لي، حتى آتى نهار الجمعة، حسناً سوف يأتي اليوم مع عائلته لطلبي. وإن كان الفرح من أسباب الوفاة كنت سأموت في ذلك اليوم، أعد الساعة أثر الساعة حتى حل الليل، كنت قد تزينت وكأني سأزف عروساً له.

جالسة بالداخل عندما عندما سمعتهم يقولون أن الضيوف قد وصلوا، تراقصت أعصابي وبردت أطرافي هو بالخارج في بيتنا يجلس مع أبي ويتحدث معه بشأننا..

يتحدث عنا..

عن مستقبلنا..

عن بيت يضم كلانا..

عن أطفال يحملون اسمه وملامح وجهه..

عن لحظات تجمع فيما بيننا..

عن عمر سوف أقضيه معه..

خرجت عندما طلبوني وكدت أموت من الخجل عندما حييت والدته وشكرت جمالي، جلست مع أخواته وتسامرنا قليلاً ونمت بيننا نبتة مودة ناشئة.

وحتي تكتمل مراسم الخطبة خرجنا "للحوش" حيث الجميع، أفسح لي المجال بالقرب منه في كرسي كان أقرب ما جمع بيننا.

لم أستطع النظر إليه فقط تسلل عطره وداعب أنفي في خبث واضح.

قامت أخته الصغرى بتلبستنا الخواتم وسط مباركات و "زغاريد" الجميع، حينها همس لي:

عقبال ما احولها ليدك الشمال.

كالحلم كانت تلك الليلة، كل شيء فيها ساحر، حتى أدق التفاصيل تسطرت داخل عقلي في مكان خفي، دسستُها مخافة أن يسلبها أحد مني.

وهكذا أرتبط إسمي بأسمه وكأني جزء منه، وسوف يسترده في يوما ما.

يوما يعقبه أخر كانت المسافة بيننا تقل وأتقرب منه رويدا رويدا، قد كان كتوم ومتحفظ لا يفصح بالكثير ودائما ما يقول أنه بخير.

لكن ذلك لم يثنيني وكنت لا أدعه وشأنه حتى أرى تلك الضحكة تلوح على محياه.

وكما قال أنني الأقرب إليه وأول من يهرع له عندما يقع في مشكلة ما، كثيرا ما كان يؤكد لي أنني مكمن أسراره وبئره.

ذلك الأمان في علاقتنا ما كان يقربنا من بعضنا عقب كل خلاف، فكان يعرف أنه ورغم كل شيء سأحبه وأدعمه وكنت أعرف أنه لن يتخلى عني.

كان كل شيء يسير على ما يرام وحسب الخطة الموضوعة، تم دهان البيت وكنا نشتري قطع الأثاث نختار الأوان والأشكال، وما هي إلا تفاصيل صغيرة حتى يكتمل عشنا الزوجي.

حتى ذلك اليوم عندما اتصل بي وأخبرني أن والده قد توفي، كانت في صوته نبرة إنكسار لأول مرة يتجرع مرارة الفقد.

أيام وليالي وهو على تلك الحال، ليس بالغريب عني ولا القريب مني، حيث هو كل شيء ولا شيء.

تراجعت علاقتنا بشكل ملحوظ حيث كنا لا نتكلم بالأيام الطويلة، لا يرد على رسائل ولا يتصل بي وباءت كل محاولتي في مساعدته في تخطي حالته بالفشل.

نعم أنا مدركة حجم ما أصابه ولا أطلب منه أن ينسى ولكن عليه المضي قدماً، فبرغم كل شيء ستستمر الأرض بالدوران.

كنت على أمل أن تتحسن علاقتنا مع مرور الوقت حتى ذلك اليوم؛ عندما قدم إلى بيتنا ليلاً وطلب من والدي السماح له بالحديث معي.

كنت حينها أشاهد مسلسلي عندما قدمت إلى أختي وأخبرتني بوجودك، هذبت من هيئتي وكنت في حضرتك عندما تركنا والدي حتى نتحدث.

كان في قلبي شوق عميق تمنيت لحظتها لو يمكنني إحتضانك، لكنك قلت بصوت ينهمر قسوة:

انا مسافر وما معروف ارجع متين ولا البحصل شنو للوقت داك لو بتقدري تنتظريني.. لو ما بتقدري ما بجبرك لانو ده وقتك وعمرك، وربنا يقدم ليك الفيو الخير.

ألقيت بهذا الكلام علي من غير أن يرف لك جفن، هكذا وفي غضون دقائق كنا قد نهيت كل ما كان وسيكون بيننا..

تلك الوعود..

الأحلام..

بيتنا..

أطفالنا...

أغتلت جميعهم وقتلت الحلم قبل آكتماله.

الفصل التاسع

"نورة"

تحت الغطاء ودقات قلبي قد وصلت إلى ذُروتها، تتعالى أنفاسي وتهبط بصورة مضطربة..

كيف فعلتها؟

وكأن كل من في الكون تأمر علي، تلك الأحاسيس التي خالجت وجداني ورزار المطر ولسعات البرد،

صوته..

أنفاسه..

وعطره..

أه من ذلك العطر كم هو شهي مثل شفتيه ..

في داخلي الكثير من التناقضات أرغب به وأمنع نفسي عنه، قلبي يريده ولكن عقلي يستوعب إستحالة لقائنا، نعم قد تجاوزت الحدود فيما فعلت ولكن لم أقوى على كبح جماح نفسي، أريده وبشدة أريده أكثر من أي شيء أخر.

فارق النوم عيني كلما مر بخيالي ما جرى،

تراه ماذا يقول عني الآن؟

بالتأكيد مصدوم وغير مصدق، فهو لا يعرف أنني جريئة أو قليلة أدب كما تقول أمي عادة، تقبلت في الفراش حتى الصباح ما أن شرقت الشمس حتى سارعت بالنهوض.

في عجل أخدت أستحم وأرتديت زيّ وصرت جاهزة.

كنت مترددة وجهي يحمر خجلا كلما تقدمت بخطوات ناحيته، ركبت السيارة وأنطلق في صمت لم ينطق ببنت شفه، وبعد محاولات كثيرة غالبت نفسي وسألته عن سر صمته الغريب، أجابني بشكل قاطع وقاسي:

أن علاقتنا تخطت الحدود الحمر وعلينا الإقلاع عما نحن فيه.

وهكذا بهذه الكلمات نهى كل أحلامي وإغتال كلماتي.

مر اليوم عصيباً علي وكأن لا يكفيني ما جرى في الصباح حتى تشاكسني إحدى الرفيقات، أفرغت بها جل غضبي وغادرت وأنا أرتجف من التوتر، كان في إنتظاري كالعادة ولكن شيء ما فيّ كُسر ولم يعد كما كان.

لم يحدثني وكأنه يحمل فرد من بني الجان وليس إنسان معه،

قبل دخولنا عتبت المنزل قال بصوت مقتضب:

سأنسى ما حدث البارحة وأرجو منك ألا يتكرر مرة أخرى.

أضحى بارداً وكأنه جبل من الجليد، تخلى عن كل عاداتنا لا يأتي عند الواحدة ولا يتجول ليلاً وهو يشرب تلك السجائر.

لم يحدثني ولو لمرة واحدة فيما عدا الردود المقتضبة على اسألتي.

ندمت كثيراً وتمنيت لو يرجع بي الزمن ولا أكرر تلك الفعلة، كان لحظة ولكنها دمرت كل ما كان بيننا..

تلك الأحاديث..

الضحكات..

مغامراتنا السرية..

بسبب لحظة واحدة فقدتها كلها.

رامني شيء من الحزن حتى تهلل على ملامح وجهي، سألتني أمي عما جرى وقلت أنه إرهاق الجامعة ولكنها كانت تعلم بوجود خطب ما، نمت ليلتين في السرير ولم أقوى على النهوض كانت الحمة تأكلني ليلاً وتتغذى على دماغي فالصداع كاد يودي بي.

على غير هدى نهضت من الفراش في تمام الواحدة أسير وأتعثر، قادتني قدماي حتى غرفته وقفت أمام الباب حائرة ماذا أفعل؟

وقبل قيامي بأي حركة كان قد فتح الباب وصار في مواجهتي.

ترنحت خطواتي جراء رؤيته كدت أقع لولا تمسكه بي، انزلقت من بين يديه حتى صرت في مستوى الأرض، لم أكن أريد النهوض ليتني أكون هنا إلى الأبد.

رفعني على مهل وهو ممسكاً بذراعي، طلب مني المشي حتى غرفتي ولكني أدعيت التعب وعدم القدرة على المسير، سار بجواري اتمسك به تارة وفي تارة أخرى يمسك بي حتى لا أسقط، أوصلني حتى الباب الخلفي وحان وقت الفراق، مثلت الألم وجلست على الأرض، رفعني ثانية وهو يحدق بعينه الخائفتين حول الدار، لأول مرة ألمح الخوف في عينيه ولا أظنه خوف من الذي سيحدث لو رأنا شخص ما، متأكدة من أنه يخاف علي حتى أكثر من نفسه.

كنا في غرفتي حملني حتى السرير ودثرني بغطائي، أمسكته بيده عندما حاول الخروج وطلبت منه أن يجلس معي ولو لخمسة دقائق فقط، رفض بشكل قاطع فأجهشت بالبكاء رق لحالي وجلس بمقربة مني، كنت أطالع تلك الأعين التي أسرتني من أول مرة رأيتها فيها، كيف يدق قلبي له بكل هذه القوة وهو لا يدري عن ذلك شيء؟

أمسكته من ذراعه عندما لاذ بالنهوض كنت قريبة منه بشكل كافي مما جعلني أستنشق عطره، طوقته بيدي وهمست له: تكفى خليك وياي.

حاول الإبتعاد عني ولكني لم أسمح له، همس في صوته تملئه العبرات:

انا بخاف الله وما عايزك تقعي في الغلط دي لحظة شيطان استغفري.

تراجعت كمن مسه جان إبتعدت في إضطراب وأخليت له الطريق حتى يخرج.

دخلت في نوبة بكاء حادة،

كنت أبكي هوان نفسي أمامه..

وضعفي تجاهه..

وماء وجهي الذي أرقته بمحض إرادتي..

لم أدري لكم ساعة أستمرت تلك النوبة حتى غططت في ثبات عميق.

إستيقظت بوجهي الباهت وأعيني متورمة، حاولت بكل ما أستطيع إخفاء أثار الليلة السابقة بوضع خافي العيوب،

وضعت القليل من مسحوقات التجميل وظهرت في حُلة شبه طبيعية.

تناولت الشاي مع أختي وأخبرتني عن جمعة العائلة في بيت عمي والتي تخص ابنه عمي غير الحبيبة، بالتأكيد ستحكي لينا عن إنجازاتها اللانهاية وكم هي شخصية فريدة ومتميزة. أبديت إعتراضي وعدم موافقتي على الذهاب معهم، ولكني تعرضت لضغوطات كثيرة من قبل أمي نص أخرها على معاقبتي أن لم أحضر، وافقت رغماً عني ومضيت على مضض.

كان هناك واقف كالعادة بالقرب من السيارة ينظف زجاجها الأمامي، للحظة ترددت وكأن شيء ما سيحدث كنت أطالعه في قلق والتوتر يقضم قلبي، قال ومن غير أن ينظر إلي بأن أدخل السيارة حتى ننطلق.

فعلت كما قال وكان الصمت سيد الموقف، صمت عميق وكأن الفراغ أنتشر بيننا، حتى تلك اللحظة عندما تعالى رنين هاتفه بإتصال رد عليه والإبتسامة تكاد تسع الأرض بمن عليها.

كان صوت أنثوي رقيق تغني صاحبتها أغنية مصرية لا أعرف صاحبتها لكن كلماتها صعقت قلبي.

ياليالي روحيله

عن شوقي وناري احكيله

يا يجلي يا اما اجيله

مش قادرة في بعده اعيش

وقوليله كفايه ويخلي لبعده نهايه

مش عايزه غيره معايا

والباقي ميلزمنيش

كانت تطلب منه أن يغني لها بدوره ولكنه رفض، كانت تتحدث إليه بشوق كبير وكأن سنوات قد فصلت بينهما.

تقاطرت الدموع من أعيني كالشلال لم أستطع كبحها، كنت كأنني أغرق والهواء لا يصل إلى رئتي، كان يتحدث معاها بنبرة صوت لأول مرة أسمعها منه، وتلك الضحكة لم أرها إلا الآن وهو يتحدث معاها، ضاق صدري بي ولم أقوى على المقاومة حتى أحسست بأني أفارق الحياة.

أغرورقت عيناي وفاضت بالكثير من الدموع، كان مرتبك لا يدري ما الذي حدث لي، إنها المرة الأولى التي يراني فيها وأنا أعاني من نوبة صعوبة التنفس.

حاولت جاهدة إلتقاط أنفاسي حتى عادت إلى طبيعتها وهو يطالعني في قلق.

سألني كثيراً أن كنت بخير لكني لم أرد عليه، ليس بسبب تعبي وإنما من غضبي منه،

غضبي من نبرة صوته الحانية تلك..

من الإبتسامة التي لاحت على ثغره أثر مكالمته إياها..

لم أكمل الطريق وعدنا إلى البيت، أقفلت على غرفتي دسستُ نفسي داخل فراشي.

خرجت أمي مصطحبة أختي بعد أن أيقنت عدم إمكانية جبري على الذهاب، بعد أن أكثرت لومي وتوعدت لي بالكثير حين عودتها.

الفصل العاشر

"عمران"

هذا ليس أنا...

لست ممن يمازح النساء ولا يتقرب منهم لتلك الأسباب، لم يدق قلبي غير مرة واحدة وكانت لفتاة أثرتني وكل حواسي، حاولت جاهداً إخفاء ما أشعر به نحوها ولكن عبث، لم أستطع دفن هذا الحب في أعماقي وما أن طاف في السطح حتى بحت به.

ولكن بطريقة تليق بالرجال، تقدمت إلى أبيها طالباً منه أن يعطيني نصفي الآخر.

كانت ليلة ولا ألف ليلة وليلة لن أنساها ما حييت، عندما أقبلت تمشي على إستحياء في ذلك الثوب البهي، رقيقة مثل نسمة جميلة كالقمر وأظن أنها أجمل منه وقد يغير من حسنها وبهاءها، جلست بقربي ونبضات قلبها ترن مثل نوتة موسيقية شاردة من مقطوعة ما في أذني.

من حين لآخر أسترقت النظر لعينيها، سوداويتها التي أسرت طفل لم يتجاوز الثانية عشر من عمره.

طفل أنفق كل سنوات برائته في تتبعها بعينيه، يراها التجسيد الفعلي والواقعي لإبداع الخالق، كاملة الأوصاف والكمال له وحده جل علاه وعز شأنه.

وجودها كالشمس في الحياة لا يمكن الإستغناء عنه، عقب يوم طويل يكون البراح في صوتها، بكلماتها الرقيقة تخفف عني أوجاعي وترمي بيها بعيداً.
لطالما كانت أسعد أوقاتي في حضورها، بل هي كانت كل أوقاتي السعيدة.

كان كل شيء يسير على حسب الخطة ووفق ما نريد، حتى ذلك اليوم عندما توفي والدي إثر جلطة قلبية لم تمهله الوقت الكافي لتوديعنا.
كانت وفاته الحادثة التي قلبت حياتنا رأساً على عقب، تبين وقتها أن منزلنا قد يباع من كثرة الديون التي كثرت خلال أيامه الأخيرة، والمحل الذي أصبح بعهدة عمي وفقاً لأوراق رسمية كانت بحوزته.

بين ليلة وضحاها فقدنا كل ما نملك،

بيتنا..

سيارة أبي العتيقة..

ومصدر رزقنا الوحيد..

وكنت قد تخرجت لتوي وقضيت الخدمة الوطنية لكن لم أحظى بوظيفة بعد.

وخلال بحثي المضني عن إي فرصة عمل لم أجد شيء، فقد كانت الشروط غير معقولة؛ كيف لخريج أن يحظى بخبرة لا تقل عن ثلاثة سنوات؟

كانت شروط تعجيزية توضع لم هم مثلي فاقدي فايتمين واو إي الواسطة.

وهكذا عدت من أغلب المقابلات خالي الوفاض، وكل الوعود بإعادة الإتصال كانت آمال كاذبة.

حار دليلي ولم أدري ماذا أفعل والضغوطات تكثر، إنتقلنا لمنزل آخر بإيجار شهري وكان مرتفع بعض الشيء بالنسبة لظروفنا في ذلك الوقت، نهايك عن المصروفات الأخرى من مأكل مشرب وإحتياجات أخواتي وأبناء أخي.

طبعا لم يكن بوسعي الجلوس مكتوف اليدين، عملت في كل ما من شأنه أن يدر علي بجنيه حلال، من "طلبجي..عتال" وغيرهما الكثير، ولكن كل ذلك لما كان سيساعدنا أكثر من تغطية نفقاتنا المحدودة.

حتى أني فكرت في الذهاب إلى الخلاء بحثاً عن الذهب، ولكن "يمه" تعودت لي بالكثير إذا أقدمت على فعلتي.

جلست لأيام طويلة أبحث عن حل جذري لأزمتنا حتى داهمني الأرق من كثرة التفكير.

وحينما أنا في "الجنبة" مع الرفاق نشرب القهوة تحدث أحدهم عن شخص يستطيع شراء عقودات عمل في دول مجاورة وتوفير فرصة عمل.

أصغيت بكل إمعان وسألت عن هذا الشخص هاتفته مستفسراً عن إمكانية توفيرة فرصة عمل لي، بشرني عن وجود الكثير من الفرص، رسم لي الكثير من الأحلام وحسب ما يقول خلال ستة أشهر أو أقل قد أكون حققت ما يكفي لتغير حياتي، وبما أني كنت في موضع الغريق الذي يتمسك بقشة كانت تلك قشتي للنجاة.

عدت من فوري إلى البيت وتحدثت مع أخي بهذا الشأن وأبدا إقتناعه بالفكرة، ولكنا تكتمنا على الأمر حتى لا يتأملن وبعد ذلك يخيب ظنهن وينكسر خاطرهن.

وبعد عدة أسابيع من السعي المتواصل إستخرجت جواز السفر وجائني عقد العمل وحتى تكتمل إجراءاتي إضطر أخلي لبيع سيارته حتى أتمكن من السفر، ولكن برغم ذلك

كان المبلغ ما يزال ناقص، وعلي عند الوصول تسديد ما تبقى.

جلست ليلتها مع "يمه" عقب صلاتها لفرض العِشاء، كانت على سجادتها تذكر الله وتدعي لنا بالكثير، كنت أطالعها وعيناي تقول الكثير ولكن لساني عاجز عن النطق، ربتت على ظهري وهي تتمتم لي بالدعاء.

بعد تمهيد طويل قصصت لها عن فرصة السفر التي أُتيحت لي وكم سيكون من الجيد سفري من أجلنا، وعددت لها الكثير من الفوائد ولكن رغم ذلك كانت مصرة على رفضها، كيف تسمح لفلذة كبدها بالذهاب بعيداً عنها، في بلد الغُربة حيث لا أنيس ولا صديق، لم أضغط عليها حتى لا يصبح رفضها عناداً فتتعقد المشكلة ولا أقدر على حلها.

ومن ثم ذهبت لحبيبة قلبي ونور عيني، لا أدري كيف طاوعتني قدامي؟

أو كيف أستطعت أن اقول لها كل ذلك الكلام في وجهها؟

كيف أطلب منها واصلة حياتها من دوني؟

وكيف تكون مع رجل آخر وأنا على قيد الحياة؟

كيف لا تحقق معي كل الأحلام التي كانت أحلامها؟

خرجت من عندها ومضيت تاركاً قلبي بحوزتها، فهو يدق وينبض لها وليس لي.

وبعد جهد جيهد وافقت "يمه" على سفري ومدتني بأخر قطع ذهب كانت قد ورثتها عن أمها حتى أتمكن من سداد بقية المبلغ.

كان لدي الكثير من الأحلام حتى إصطدامي بالواقع والمصيدة التي وقعت فيها، رغم الإحساس المُر الذي شعرت به إلا أن صبرت، وتحملت ليس من أجلي وحدي وإنما من أجل كل عائلتي التي تعتمد علي، وتخيرت في نفسي قائلاً:

لربما يكون الخير الخفي المدسوس في الشر الظاهر.

في الشهر الأول ارسلت كامل راتبي لأخي حتى يتمكن من إستعادة منزلنا ويرتب أمورنا هناك.

وشيء فشيء كانت الاوضاع تتحسن؛ فقد كنت أتولى وظيفة السائق والبستاني وحامل البقالة، ثلاثة وظائف لشخص واحد مع ثلاث رواتب كانت كافية لترتيب وتحسين حالة أهلي وبدء تحقيق ما حلمت به.

بذلك خفت الهموم التي تثقل كاهلي وبدأت أتعود على المكان ونشأت إلفة بيننا وكأني صرت مثل طير حر.

لما كان شيء ليهون لولا وجودها...

تلك الغريبة..

متعددة الشخصيات..

الرقيقة حيناً والمجنونة في حين آخر..

العاقلة الرزينة في حضور الكل والمتمردة العنيدة بجواري..

لا أدري ما كنه مشاعري نحوها ولكنها مضطربة، هي ليست بصديقتي ولا بمن يدق لها قلبي، ما كان بيننا أعمق من ذلك وأقرب، في حضورها أكون أنا..

بضعفي..

مخاوفي..

عيوبي..

آمالي..

معاً نضحك..

نبكي..

ونحكي الكثير..

من غير أن نخاف من الحكم المسبق.

تعرف عني ما يجهله أقرب الناس إلي، وبدورها باحت لي بالكثير من مغامراتها المجنونة، إنها حقاً مميزة بطريقة ما

وبشكل ما، وحقاً أنا عاجز عن وصف ماهيه شعوري تجاهها.

حتما أنا لست بغبي حتى لا أدرك حقيقة أنها تكن لي المشاعر، وأن كانت لم تقل ذلك صراحة نظرات عيونها باحت بكل شيء، حاولت جاهداً أن تظل علاقتنا في حدود الصداقة ولكن كذب من قال أنه بإمكان وجود علاقة بين رجل وامرأة، بوجود الميل الفطري من الرجل ناحية المرأة والعكس من النادر ألا يجمع الحب بينهما مهما حاول أي طرف المحافظة على الحدود والمسافات.

فعلتها تلك وأن كنت طرف فيها جعلتني أفكر كثيراً في طريقة تعاملي معاها هل تساهلت للحد الذي جلعني أمها قد أقدم على فعل كذلك؟

لربما ظنت أني من ذلك النوع تصادمت الأفكار في رأسي وقررت الرجوع لحدودي حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه.

لم أحدثها البتة ولم أخرج لرؤيتها في مكاننا المعتاد، تركت بيننا مسافة تصل ما بين السماء والأرض، خوفاً عليها من نفسي ومن المشاعر التي لا أستطيع أن أبادلها إياها.

وجراء لذلك كانت تبدو منهكة..منهارة صوتها أرق من العادي، نظراتها هذيلة وكأنها لم تحظى بنوم كافي.

وفي طريقنا للجامعة مرت بنوبة من ضيق التنفس كانت قد حكت لي في وقت سابق أن نفسها يضيق عندما تغضب أو تحزن، قلقت عليها وأعتصر قلبي لرؤيتها بهذا الشكل.

كنت أنا السبب وراء ما حدث لها، ولو أني لم أتخطى حدودي منذ البداية لما آلت الأمور وأخذت هذا المنحنى.

لو أني حافظت على المسافة بيننا و وضعت نصب عيني أنها ابنه من يتكفل بي وبعائلتي لما طالعتها بنظرة، الخطأ خطأي وعلي إصلاحه بنفسي مهما كلف من ثمن.

الفصل الحادي عشر

"نورة"

خلعتُ عني رداء حزني وخرجت من مأتمي، إرتديت أرقى عباءة أملكها وتزينت وكأنني أخرج لعرس ما، تعطرت وكنت كما تلك الأميرة يوم زفت عروساً للملك الذي تخلى عن عرشه لأجلها.

طق

طق

طق

صرت أضرب الأرض بقدمي وأنا أرتدي الحذاء ذو الكعب العالي محدثة دوي وكأني أنفث عن غضبي بتلك الضربات، كان في الخارج يسقي الرزع ويعتني بالنباتات أخبرته أن يجهز السيارة حتى ننطلق وكانت نبرتي جافة لم يسمعها من قبل.

تذمرت حين تأخر علي ووصفته بالإهمال لم يرد علي وأكمل ما يفعله، رغم كل تصرفاتي وكلامي القاسي معه إلا أن قلبي كان يأن ألماً أثر كل كلمة تخرج من بين شفتي.

كيف طاوعني قلبي على معاملته بذلك الشكل؟

عندما أوشكنا على الوصول طلبت منه إيقاف السيارة في الحال، لم يكن عندي مبرر فقط أريد الجلوس معه ولو لبضعة دقائق إضافية.

كان شارد الذهن يطالعني من مرأته الأمامية وأهرب بعيني حتى لا يلتقيا، عشرة دقائق مضت ونحن جالسين في صمت مطبق، حتى رن هاتفه مرة أخرى ولكنها كانت مكالمة فيديو صوت وصورة، أصمت الهاتف ووضعه مكانه كاد الفضول يقتلني أتراها هي مرة ثانية؟

أخبرته بعدم إنزعاجي وبإمكانه الرد على هاتفه لكن قال:

ما من ضرورة لذلك وسيعاود الإتصال لاحقاً.

لا رد الآن علي معرفة إن كانت هي أو لا، عندما أنطلقت الرنة من جديد حاولت بكل ما أستطيع حتى رد متصنعة عدم الأنتباه وانا تكاد عيوني تخرج من مجحريهما حتى أراها.

فرحة: صباح الخير يا كل الخير

عمران: صباح الخير بالعصر.

انت عارف صباحي ببدأ لم أشوفك.

لالا ماشه كويس.

سايق ولا شنو؟

لا قاعد في العربية ومنتظر.

صحي الناس بتبقى حلوة كده لم تسافر؟!

فرحة.

عيونها ونبضها وقلبها.

ما بقدر اتكلم معاك ممكن أرجع ليك بعدين؟

احيي نان اسوي شنو إلا انتظرك، خلي بالك من نفسك وانتبه وانت سايق.

حاضر وانت كمان.

يحضروني ليك عروس.

امين امين.

هو يحبها مما لا شك فيه يستحيل أن يتحدث مع صديقة له بهذا الشكل.

ولكن لماذا لم يخبرني من البداية ؟

لماذا لم يقل لي أنه في علاقة؟

قطع علي تفكيري عندما طلب الحديث معي، أجبته والدموع تتغالب أمام عيني، مال علي بجذعه وقال في صوت رصين:

هذه مخطوبتي أحبها منذ سنوات طويلة وتنتظرني عند عودتي حتى نكمل زواجنا، أسف لأني لم أحدثك عنها قبلاً لكن الظروف لم تسنح لي.

ثلاثة وعشرين كلمة كانت في نظره مبرر كافي لكل ما حدث وكان سيحدث بيننا.

بهذه الكلمات برء ذمته ناحيتي وكأن شيء لم يكن.

يا له من قاسي، أفي صدرك قلباً أم حجر؟

إذا كانت هي خطيبتك وحبيبتك فما موقعي في حياتك؟

غضبت حتى صار لوني أرجواني، صرخت فيه وتحرك بالسيارة على الفور، كان علي التنفيث عن غضبي وإلا سأنفجر.

دخلت المجلس وأنا أتبخرت وكأني الطاووس، الجميع يطالعني كونها المرة الأولى التي آتي فيها طواعية ومن تلقاء نفسي.

جلست في صدر المجلس بعد أن حييت الحضور، وأقبلت ابنه عمي غير الحبيبة معرفة الجميع علي بأني متوحدة العائلة التي لا تخرج إلا للدراسة رُغم مستواي المتدني فيها. لم أعلق على قولها وأستمتع بتلقي المديح على جمالي في حضورها، وكأن جزء من غروري قد رُد إلي، أنا هنا وفي بيتها بين رفيقاتها أو مدعيات الرفقة في جلستها ورغم حضورها كنت صاحبة الحضور الطاغي، الكل مشغول بالحديث معي وكأنها ليست موجودة، حاولت جاهدة صرف أنظارهن عني إلا أن لا أحد أعارها إهتماماً.

وكأن الفرح قد أخفى القليل من المرار الذي أحسست به، بعد طول جلوس قررت العودة لغرفتي حتى أختلي بحزني وأعيش طقوسه كما ينبغي.

إستأذنت من أمي وغادرتهم موعدة، كان كعادته يراقب الطريق وكأنه يبحث عن ضالته فيه. صحت بصوت عالي حتى فتح الباب لي وقلت له مُحذرة انها أخر مرة أنبهه فيها على هذا التفصيل فهز رأسه موافقاً.

وقبل أن يتحرك قال لي وهو ينظر للخارج عبر المرآة:
أعتذر أن كنت قد أحزنتك بسبب ما بدر مني ولكن لمصلحتي ومصلحتك يجب أن تظل علاقتنا في حدود العمل لا أكثر.

قلت له وأكاد أنفجر من الغضب:

حسناً هذا ما سوف تناله مني من الآن وصاعداً.

فجأة طلت هيفاء من النافذة ومدتني بكيس صغيرة وكانت تقول أنه كريمها الجديد وطلبت مني ان أجربه وأحكي لها عن أثره ومفعوله على بشرتي، تناولته منها شاكرة وإنطلقنا وفور إنعطافنا على الطريق رميته عبر النافذة وكأني أهتم بكريمها وما تفعله.

كان قد ركن السيارة وذهب يمضي إلى غرفته، وكانت بي مشاعر متناقضة، أنا لا أكرهه ولكن أكره الشعور الذي

جعلني أُحس به، كنت كالغبية حبي له كاد يشي بي في حين أنه مغرم بأخرى، أوليتها بنصف جمالي أو أُنوثتي،

ما المميز فيها؟

ما الذي تحمله وليس عندي؟

كيف يحبها ولا يغرم بي؟

حقاً الرجال أغبياء ليس إلا.

كنت في المطبخ أُعد فطيرة لي فالجوع قد هتك بمعدتي، حينما سمعت طرقات الباب من المؤكد أنها أمي ستلقي علي محاضرة طويلة عريضة عن أدب المعاملة جراء فعلتي في بيت الأمير ديانا.

لم أتدثر بغطائي وفتحت الباب فإذا بإبن عمي واقفاً أمامي، أقفلت الباب بسرعة ورجعت حاملة غطاء رأسي، فتحت الباب من جديد بنصف ميلة وسألته عما يريد، أخبرني عن أوراق لأبي نسيها في المنزل وقد أرسله حتى يستردها، قلت في تفهم:

حسنا سوف أحضرها لك أنتظرني قليلاً.

ولكنه أبعد الباب بيده ودخل قائلاً:

انا افتش لا تتعبين.

رغم كل محاولاتي في عدم تركه يدخل إلا أن دخل عنوة، ذهبت للمطبخ والتوتر بادي على وجهي حتى بدأت يداي في الإرتجاف.

لعدة دقائق كنا أمارس تمارين التنفس التي أوصتني بها الطبيبة في هذه الحالات.

سيكون كل شيء بخير..

لا داعي للخوف..

سيأخذ الملف ويغادر..

وحينها أكمل إعداد شطيرتي..

لا شيء سيحدث لي..

وبينما أنا أطمئن نفسي بهذه الكلمات حتى رأيته في المطبخ واقفاً بجواري ويكاد يلتصق بي، تراجعت بخطواتي وصوتي يرتعش من الخوف وأنا أطلب منه الخروج، لكنه لم يكثرت لما أقول وأمسك بيدي حتى كادت تنكسر بين أصابعه، توسلت إليه كثيراً حتى يدعني وقد وعدته ألا أحكي ما حدث لأي شخص، لكنه كان مُصر على الإقتراب مني كانت المسافة الفاصلة بيننا لا تتجاوز الخمسة سنتمترات، لا أدري من أين أوتيت بتلك القوة حتى ضربته وترنح في خطواته خرجت أصرخ بأعلى صوتي كالتي إستجارت واا معتصماه فأرسل جيش لإنقاذها...

"عمران..عمران"

الفصل الثاني عشر

"عمران"

كان خطأي عندما تغاضيت عن إخبارها عن وجود من هي تشغل قلبي، كيف لي أن أغفل عن معلومة بكل تلك الأهمية، خصوصاً أن علاقة بفتاة مذهلة مثلها يجب أن تكون في حدود المعقول أو العقول دون القلوب.

ولكني لم أمنح نفسي العذر ففي ذاك الوقت لم تكن بينا علاقة تذكر وحتى وقت قريب كنت أظن أن كل شيء بيننا إنهار، فلم أكن أتوقع بعد كل ما قلته لها وطريقتي في هجرانها قد ترغب بي مجددا، أعلم أنها تحبي وكثيرا ولكني لم أثق بغفرانها لي، ولكنها كما قالت مثل جمان وأنا ذلك العزيز مهما يجري بيننا لا يوجد ما يفرقنا.

آتى إعترافي متأخراً ولكن رحمني من ضيق الصدر الذي أصابني، عاملتني بجفاء ولها كل الحق في ذلك فلو كنت مكانها لما سمحت لأحد بأن يستغفلني، لكن لا أدري لماذا أوجعني برودها وتلك النبرة في صوتها.

عدت غريباً وربما بمكانك أسوء من مكانة الغرباء، فالغريب لديه الفرصة للتعرف والتقرب، ولكن أنا أنفقت جميع فرصي معاها.

وأنا أعاود الإتصال على "فرحة " تنبته لشخص يقف أمام الباب، أنه ذات الشاب الذي رأيته مع كفيلي يوم أخراجي من الحبس، كنت على الشباك أطالعه وهو واقف في مكانه تكلم ببعض كلمات لم أدري ما كُنهها وبعد قليل هم بالدخول، من غير وعي مني سرت في إتجاه البيت أستفسر عن سبب مجيئه ولا أحد بالداخل غير "نورة ".

سمعت صوت صراخها بأسمي أرتدعت جميع أطرافي وركضت للداخل، كانت تجري منه وهو يلحقها اوقفته بضربة من يدي وقع أثرها على الأرض، كانت هي ترتجف من الخوف، سددت له المزيد من الضربات حتى سال الدم من أنفه، حملته من قبة قميصه ورميته خارج البيت متوعداً له بالضرب المبرح إذا عاود المجيء مرة أخرى.

ما زالت على الأرض تضم قدامها وتبكي في صمت، رفعتها على مهل أجلستها على الكرسي وأمددتها بكوب من الماء، كانت تبدو منكسرة مثل طائر جريح، عندما هممت بالمغادرة

أمسكت قميصي وأرتمت علي، لم أدري ماذا أفعل هل أبعدها أم أمسح على شعرها حتى تهدأ؟

وفي تلك اللحظة دخلت والدتها إلى الصالة، كنت قد رأيتها قبلاً وقفت في مكاني من غير حراك، تقدمت ببطئ إلى أن كانت في محازاتنا والشرار يتطالع من أعينها، قالت بصوت عالي:

أبتعد من فورك عن ابنتي ولا أريد رؤيتك ها هنا مجدداً، هذه هي الأمانة التي تتغنوا بها انت وأبناء بلدك في منزل والدها وبغايب أحد تستغلها عار عليك اسم رجل بين الرجال.

رغم ثقل الكلام الذي ألقته علي إلا أني لمت نفسي كثيراً لأنها سوف تعاقب بسببي حتى لو لم تكن هي المخطئة،

لكن كيف أساعدها؟

إنهار كل شيء مؤكد بعد هذه الحادثة لن يستبقى علي الكفيل فلا فائدة له من وجودي، وعندما تحدثه زوجته بفعلتي قد لا يبقي على حياتي، هممت بترتيب أغراضي أستعداداً للمغادرة بكرامتي بدل طردي، وبما أن عقد عملي قد شارف وقته على الإنتهاء لا بأس بالتعجيل ببعض أيام.

بعد أن أديت فرض العشاء وأنا عاد إلى المنزل وقفت سيارة في أمامي وخرج منها أربعة شباب، قامو بتوثيقي وزجي داخل السيارة، حاولت الإفلات منهم ولكن لم أستطع، وضعوا كيس أسود على رأسي ولم أدري إلى أين أحضروني، عندما أبصرت بعيني كنت في غرفة أشبه بغرف الحبس، أتى الأربعة شباب مرة أخرى ولكن هذه المرة ضربوني حتى فقدت الوعي.

لا أدري لكم ساعة أستمر غيابي عن الوعي ولكن حالما صحوت أجبرت على توقع ورق ما رغماً عني، فيما بعد فهمت أن سيتم ترحيلي قسراً تُركت ثالثة أيام بلياليها في ذلك المكان، وفي اليوم الرابع على ما اظن ساروا بي حتى الميناء وتم إدخالي مع شحنة ما في مكان ضيق، وإذا بذلك الحقير قريب "نورة " يظهر أمامي والرجال يمسكون بي، قال بصوت مملوء بالغرور:

كانت غلطتك كبيرة يوم ما رفعت يدك علي، انت الحين تشكر ربك أني بس رحلتك وما وديتك ورا الشمس، وما تشغل بالك على نورا تراني بحطها بعيوني.

تركوني في ذلك المكان رغم محاولاتي الكثيرة على تحرير نفسي، كنت مكبل القدمين وكأني مجرم ما، جلست في ركن صغير وبجواري لحاف رقيق وبعض أكياس البسكويت

وقارورة ماء، مغطي جسدي بالكدمات والرضوخ وروحي تأن من الألم.

دامت الرحلة ليومين أو يوم ونصف على ما أظن نفذ كل ما لدي فيها وكاد العطش يودي بحياتي، عندما أبصرت للمرة الثانية كنت في مكان لا أعرفه ولكنه غير مأهول كأنها شبه صحراء، مرمي على الأرض ومظهري يوحي بأني مشرد أو لقيط، حاولت المشي ولكن قدماي عجزت عن ذلك لشدة وهني وجوعي فأستلقيت على الأرض وأغمضت عيناي.

ضربات من عصا على كتفي كانت ما أيقظني من سباتي، عجوز في السبعين من العمر يركب على حمار وفي وجهه ظهر الوقار، ساعدني في النهوض وتنازل لي عن حماره حتى أركب فيه، وسار بنا حتى منزله وطوال الطريق لم يسألني عن إي شيء، أمر لي بغسل وطعام وبعد أن أصبحت حالي أفضل سألني عن قصتي وسبب وجودي في تلك الحالة.

بعد أن رويت له كل ما مر بي طلب مني المكوث معه عدة أيام ريثما تتحسن حالي، وبعدها سوف يساعدني بنفسه على الرجوع إلى أهلي.

ولم أستطع الإتصال بأحد بسبب سوء الإرسال في تلك المنطقة التي إتضح أنها من ضواحي بورتسودان البعيدة. وكان عند وعده بعد أيام قضيتها معه جاءني بقريب له يمتلك سيارة وذاهب إلى الخرطوم في تجارة، ودعته مبتسم وشكرت له صنيعه معي وأني لن أنسى موقفه ما حييت.

لساعات طوال أمتدت الرحلة حتى وصلت إلى الخرطوم، حيث أوصلني قريب العم بركات وأقسم بالله ألا أنزل إلا عند بيتي، دعوته ليرتاح من تعب الرحلة لكنه أصر على المغادرة بحجة عجلته الشديدة يريد أن يرجع من فوره، لوحت له بيدي بعد أن تحرك وطرقت على الباب.

أتاني صوتها الرنان كم إشتقت إليها، صدمت عندما رأتني وكأنها في مقابلة مع شبح، نعم تغيرت ملامح وجهي قليلاً ولكن ليس للحد الذي لا تتعرف علي فيه، باغتتني وأرتمت على حضني وهي تبكي، حاولت أن أهدأ من روعها، فإذا بأمي واختي الثانية ترتميان في حضني جميعهن بين يدي.

طالت فترة البكاء ولم يسكتن حتى عَلى صوتي وتهديدي بالرحيل مجدداً، دخلت إلى البيت وأضحى مختلف بعد تغير

لون الدهان وهناك عدد من الأصايص الجديدة، ولكنه ما زال بيتنا الدافي الذي تربيت وإعتدت عليه.

مدتني بكأس من الماء وسألتني "يمه" عن سبب مجيئ دون أخبارهم، لفقت الكثير من الكذبات حتى لا يقلقو علي، أنتبهت أختي لعدم حملي لأي أغراض أخبرتها أنها في المطار وسوف تصل قريباً.

كانت ليلة طويلة لم يخلدن فيها للنوم إلا بعد أستجواب طالت مدته، تمددت على السرير أطالع السقف وأفكر بالكثير.

إلى متى سوف أستمر في الكذب عليهن عاجلاً أو أجلاً ستظهر الحقيقة ويتجلى أمامهن سبب عودتي المفاجئة.

عدت بخفي حنين خالي الوفاض من أغراضي والهدايا التي كن ينتظرنها، ولكن لحسن حظي قد أرسلت كل ما أملك لأخي قبل مدة، قد لا تكفي لفتح مشروعي أو بداية تأسيس شركتي الخاصة مع إكمال عرسي الذي بقي ناقص لفترة طويلة ولكن لا شك سوف تساعدني بالكثير.

رغم كل مشاكلي ما زال عقلي وفكري معاها، ترى كيف حال "نورة " وما الذي حدث لها بغيابي؟

الفصل الثالث عشر

"فرحة"

من المؤكد أن مكروهاً أصابه فمن غير عادته الغياب كل تلك الأيام من غير أن يحادثني أو يطمئنني على حاله.

ربي أحفظه لي بعينك التي لا تنام.

كان الهاتف في يدي طوال الوقت ومع كل إشعار منه أركض لعلي أجد ما يطمئن قلبي، ولكن عبث لم يرسل أو يتصل وهاتفه مغلق طوال الوقت، خفت عليه كثيراً تراه تعرض لمكروه ما؟

عقب العِشاء وأنا بالغرفة أحاول الإتصال به جاءت أختي وعلى وجهها أبتسامة غبية، أمرتني بترتيب نفسي والقدوم للصالة حتى أسلم على الضيوف، لم أعرف أي ضيوف في هذا الوقت؟

متى سيتعلم الناس أداب الزيارة والإستأذان قبل تشرف أحد ما، أرتديت ما يلائم واتجهت للصالة لكني صدمت عندما رأيت من الجالس قبالة والدي، كان هو بشحمه ولحمه يتكلم معه ويضحك وما إن رأني حتى لمعت عيناه.

كاد قلبي يخرج من مكانه وأنا أنظر إلى عينيه بعد سنتين من الفراق، لماذا لم يخبرني عن مجئه على الأقل كنت أحضر نفسي معنويا ونفسيا لإستقباله؟

كان أغلب الحديث يدور بينه وبين والدي ومن حين لأخر يسترق النظر إلي، وفي نهاية الجلسة طلب منه تحديد موعد حتى نكمل زواجنا مودعاً إياي بإبتسامة سلبتني قلبي من جديد.

فور خروجه ركضت وحملت هاتفي وقد سبقني وهاتفني قبل أن أفعل، قال أنه توقع عدم فهمي لجل ما حدث وخلال ساعة حكى لي عن كل ما يخطط له من أجل زواجنا.

وهكذا زواجي الذي تأخر أكثر من ثلاثة سنوات ونصف سوف يحدث خلال أسابيع قليلة.

رغم الكثير من تحذيرات صديقاتي بألا أنتظره وأني أضيع في زمني وأنه عند عودته سوف يتزوج قريبة منه وينسى حبي كما يفعل الكثير منهم، لكن لم أرد عليهن وكنت أثق به وفي حبه لي، أثق أنه سوف يأتي يوما ما ونكون سويا وليلتها أنطبقت حالتي على أسمي ولم أستطع النوم لشدة الفرح.. فرحي برجوعه.

مرت الأيام بسرعة كعادة الأيام السعيدة ما بين التجهيز لبيتي وتحضيرات الزفاف و "الجرتق" وكل التفاصيل تلك المذهلة، فرحي وسعادتي إنعكست على جمالي حتى صار كل من يراني يسمي الله على حُسني، وجاء اليوم الموعود في تلك الجمعة التي كانت مختلفة ومتميزة عن أخواتها، في ذلك اليوم الذي تم فيه عقد قراني على من أقترن به عقلي وقلبي، وأخيرا بعد طول عناء وإنتظار أصبح لي وكنت من نصيبه.

لو وزعت سعادتي وقتها على العالم لكانت أغرقته، زففت له عروساً أرتدي الأبيض وهو بالبذلة السوداء، جنباً إلى جنب سرنا وعيون الجميع تشيعنا ويتمنون لنا الخير ويدعون

" تغلبا بالمال وتغلبك بالعيال "

وبعد إتمام مراسم الجرتق ودعت أهلي بدموع الحزن على فراقهم والفرح لذهابي معك.

نحن هنا أنا وأنت لوحدنا في بيت يضم كلانا، سقفه أحلامنا وطموحاتنا وأرضه تفترش بحبنا، كانت الساعة تشيل إلى عشق إلا ربع، قضيت ليلتي الأولى معك أطالع عينيك وقلبي يكاد يخرج من مكانه، ما أتعس اللحظات التي لم أكن فيها بقربك وما أسعدني بجوارك.

كما حلمت كانت أيامي معاك وردية وأحلى مما تخيلته بكثير، ما أشرق صباحي إذا يبدأ برؤية وجهك الباهي وما أمتع مساءً أسمع فيه ضحكاتك، تفاصيلك تغزو عالمي وتجمل أيامي، أخاف أن أحسد نفسي على سعادتي معك حفظنا الله من كل شر.

الفصل الأخير

"نورة"

منذ سنوات مضت وعندما كنت طفلة أبلغ الثامنة أو السابعة من العمر لا أذكر تحديداً، كنت في البيت بمفردي وقتها خرجت أمي برفقة أختي للتسوق وكان أبي في العمل وأخي يكون مع أصدقائه، عادة ما كانو يتركوني وحدي فأنا متوحدة كما يقولون، في ذلك اليوم حضر "هشام " ابن عمي مدعي أن أبي يريد شيء من المنزل، كنت في غرفتنا أنا وأختي ألعب بفلة، في ذلك الوقت كانت فلة مثال للفتاة المسلمة أما باربي كانت البنت قليلة الأدب، لذلك أطلق أبي على أختي اسم فلة ويا ليته سماني باربي.

فتح باب الغرفة من غير أذني وجلس في السرير المجاور لي، كان يلعب بشعري وأنا ألهو بألعابي، في ذلك الوقت لم أدري ما يفعل بي وحتى وقت متأخر حتى فهمت ما جرى.

لم أستطع أن أحكي لأي شخص ولا حتى أمي أو أختي فهم لن يصدقوني، وما كان لأحد أن يصدق أن "هشام" ابن عمي مثال الأدب والأخلاق ومضربها في العائلة قد يقدم على هكذا فعلة شنيعة.

لشهور طويلة كنت أتحدث مع معالجة نفسية عبر الهاتف، فلم يكن بوسعي الذهاب إلى مقر عملها وكيف أفسر لأهلي عن سر زيارتي لها.

أستغرق الأمر وقت حتى تعالجت من تلك الحالة، ولم أتخلص من خوفي من الرجال والتعامل معهم إلا مع "عمران"

كان الوحيد الذي شعرت بالأمان بقربه لم أخف منه ولو لمرة واحدة، دائما ما يتجسد لي في هيئة الحارس الحامي، أظن أن الأمان الذي أشعر به بجواره هو ما جلعني أغرق في حبه، تلك الهالة التي أشعر بها وهو معي، نعم هو الوحيد الذي جعلني أتخطى خوفي وأكون معه أنثى.

عندما رأيت "هشام" أمام الباب تجلى في داخلي ذات الشعور، ذلك الخوف الذي ينتابني وترتعش فيه أطرافي، دعوت كثيرا في داخلي أن يمضي من غير أن يمسني بأذى، ولكن هيهات سوف يظل كما كان ذئب مفترس حقير.

لولا "عمران" لا أدري ما الذي كان سيحل بي، وجوده أنقذني من ذلك المتحرش المتوحش، إحساس بداخلي دفعني لإحتضانه وكأن بين يديه أماني، كانت الدموع تنزل من

عيني من غير هوادة وأنفاسي تتصاعد بغير تنازل، أرغمت نفسي على الهدوء ولكن إبتعاده عني فجأة ورؤيتي لأمي واقفة أمامي وهي تعلنه وتسبه جعلت أطرافي تطرد، من غير أن تسمع تبريراتي صفعتي حتى كاد خدي يشل من قوة الصفعة، جرتني من شعري وهي ترمي على السباب، أقفلت علينا في الغرفة وبعد أن تعبت من ضربي فتحت معي تحقيق.

منذ متى بدأ علاقتي معه؟

وإلى أين وصل بكما الحال من عدم الخجل والإحترام؟

وإذا كان قد لمسني من قبل؟

كانت إلتهاماتها أصعب علي من القتل رمياً بالرصاص، نعم أنا متمردة ولا أخضع لما يضعوه من قوانين ولكني لست فاجرة.

تم حبسي في البيت ومُنعت من الذهاب للجامعة أو حتى الخروج من غرفتي، حُرمت من هاتفي وجهاز اللابتوب الخاص بي، كنت كم هو في سجن إنفرادي لا أحد يكلمني ولا حتى أختي، الطعام يأتيني في موعد محدد وإذا رفضت الوجبة أظل جائعة حتى اليوم الثاني، نقص وزني بشكل ملحوظ بهت لوني وخارت قواي ولم أقوى على المقاومة حتى أحسست بأني أفارق الحياة، تبدل حالي خلال لحظة وفقدت فيها كل ما أملك حتى "عمران" لم أتجرأ على السؤال عنه.

بعد سجن طال لأسابيع سمحت لي أمي بالخروج والجلوس معهم بالصالة عندما جاءت الأميرة ديانا لزيارتنا وحتى لا تشعر بشيء مما حدث، كنت في عالم آخر لا أدري عن ماذا يتحدثون حتى سمعتها تسأل عن "عمران" وكيف انه أختفى، ومن خلال الحديث فهمت أنه أقدم على جريمة ما وتم ترحيله إلى موطنه، صدمت مما سمعت فأنا متأكدة أن عمران من المستحيل أن يفعل ما قيل، بالتأكيد هناك خطب ما.

ذهبت أمي للمطبخ وكذلك أختي حينها جلست الأميرة ديانا بقربي وقالت بصوت يشبه حفيف الأفاعي:

من المحزن أن يذهب من غير توديعك أعرف أنك حزينة على سفره، لكن كان يجب أن تعلمي منذ البداية أن ذلك الحب مستحيل، لا يمكن أن تجتمع الأميرة مع الشاب الفقير هذا يحدث في الحكايات وأفلام ديزني فقط، لا تصدمي فقد سمعته عندما كان يحادثك في ذلك اليوم، من حسن حظك أنها كانت أنا وليس شخص آخر لو كان "هشام" هناك لما أشرقت عليه شمس الصباح، وسأزف لك الخبر السعيد خلال أيام قليلة سوف نأتي حتى نطلبك لأخي وتكوني عروساً له في وقت قريب.

غادرتني بعد أن كادت تودي بحياتي من الصدمات، حقيقة أنها تعرف بحبي لعمران وأن هشام سيتقدم لخطبتي، وسفر

عمران بسبب إقدامه على جرم ما، إذا صحت توقعاتي فإن هشام أستعان بأحد أصدقائه ولفق لعمران تلك التهمة حتى يتم ترحيله من غير أن تكتشف حقيقة تحرشه بي ولكي ينتقم منه على ضربه، فهو مغرور ومهوس به مرض في عقله لن يقبل أن يعتدي عليه أحد دون نيل عقابه حتى إذا كان هو المخطئ من البدء.

قضيت الليل كله أفكر كيف يمكنني حل هذه المعضلة، حاولت جاهدة خلال الأيام التالية مصالحة أمي حتى تسمح لي بإستعادة هاتفي، وقد نجحت فيما خططت وعادت تتكلم معي تدريجياً بعد قطيعة طالت مدتها.

فعلا تقدم "هشام" لخطبتي وكانت أمي أكثر مؤيد لهذه الفكرة حتى تتخلص مني في أقرب فرصة وبهذا أنسى حبي لعمران ولكن هيهات، فأبي تردد بعض الشيء وهذا ما أتاح لي القليل من الوقت.

بعد مجئهم بعدة ليالي خرجت من البيت في الثانية بعد منتصف الليل، كنت قد رشوت سائق أحد جيراننا في الحي حتى يقلني إلى خارج المدينة.

لم أحمل معي سوى حقيبة صغيرة بها القليل من أغراضي وأرتدي مقتنياتي الذهبية وبعض الريالات التي كنت أصمدها على مر السنين لهذه اللحظة بالذات.

كان الهرب من المنزل حلم لطالما تخيلت تحقيقه وها أن الآن أحقق حلمي.

إنطلقت السيارة في هدوء الليل دون أن يدري أحد بإختفائي، بلغ الادرينالين عنان السماء وأن أقف أمام ضابط الجمارك حتى يختم على جوازي، خطأ واخد وقد يقضي على كل مخططاتي وأعود إلى حيث كنت في حالة قد تكون أسوء عشرة ألف مرة من الأولى.

تراه يرى التوتر في أعيني أو يكاد يفضح أمري من الغريب وجود فتاة تسافر بمفردها في هذا الوقت ولكن الحجج التي مددته بها كانت كافية نوعا ما في جعله لا يشك فيّ، وما هي إلا ثواني حتى ختم على جوازي متمنياً لي سفرة طيبة ومريحة.

مضى كل شيء على ما يرام ولم يرتاح قلبي حتى أقلعت الطائرة وصرت في سماء الرياض مودعة.

كنت قد كتبت رسالة لأختي فلة:

أختي الحبيبة التي أحبها ولا تأبه بي، من قاسمتها كل شيء وأبت أن تفيض علي بالقليل من حبها وقربها، لا عتب عليك اليوم فقد أضحى ذلك من الماضي.

لقد غادرت المنزل وحققت حلمي، لا تقلقوا علي وأكملوا حياتكم كما لم أكن بينكم.

ونصيحة مني أخبري محمد أو صديقتك سما كما كنت تتحدث عنه عندما تظنين أني نائمة، أخبريه أن يأتي لخطبتك ولا تفرطي في حبك الذي ظننت أنه خفي علي، لا تقلقي لن أخبر أحد بهذا المعلومة ولكن سوف آتي وأحضر زواجك هذا وعد مني، أعرف أيضاً الكثير من أسرارك لكنها سوف تظل أسراراً بيننا.

أما أمي فقد كتبت لها الكثير عن ضيقي لمعاملتها لي والتفريق بين وبين فلة حتى في الحب، عن اللحظات التي وددت لو كانت بجانبي فيها، عن الكثير من الإهتمام الذي لم أره منها، وأخبرتها عن تحرش هشام وعدم موافقتي على الزواج منه، طلبت منها ألا تقلق علي فأنا سأكون بخير ولا داعي للبحث عني سوف آتي لزيارتهم يوما ما، ولتعتذر لأبي مني وليسامحني على فعلتي.

وكنت قد فكرت للحظة ماذا لو تهورت وذهبت لبيت عمران فأنا أعرف المنطقة وبالسؤال سأصل للعنوان، لكني تراجعت عندما فتحت صفحته ورأيت في آخر الأخبار أنه قد عقد قرانه على مخطوبته التي كانت في إنتظاره.

كم تمنيت لو كنا معاً..

لو كتبت لنا قصة عشق ووله..

لو كنت زوجي وكنت زوجتك..

لو..

لكن أجمل حب كما قيل هو الحب غير المكتمل...

"عمران"

بمساعدة أخي والمال الذي كان بحوزتنا تمكنا من البدء بمشورع تحت إدارتنا سويا.

عُدت لحب طفولتي ورفيقة دربي التي طال إنتظارها لي.

كانت اللحظات ما بين رؤيتي لها وإجتماعاً تحت سقف بيت واحد بطيئة تمشي على مهل ولا تدري بعجلة قلبي ولهفتي. الآن وبعد كل ما عانيته قد أصبحت من نصيبي في الحلال وأمام الجميع صارت زوجة لي.

لا الكلمات قد تصف ولا حتى الأغاني حال رجل ظفر بحبيبته، فقط ركعتي شكر وحمد لخالق الحب رب العشق مقرب القلوب.

الحمدلله على حالي ولا أريد سوى ستره ورضاه.

"نورة"

تحقق حلمي وأنا الآن في بيتي..

أعيش في البلد الذي أحب..

وحدي أقضي ليالي الشتاء الباردة بين يدي كتاب وبقربي كوباً من الشاي...

النـهاية

الكاتبة:

ريان عبدالقادر.

سودانية الأصل.

مواليد 2001/8/24 برج العذراء.

طالبة في جامعة الزعيم الأزهري كلية علوم الحاسوب وتقانة المعلومات.